القسم الأول

جمع القرآن كتابيًا وصوتيًا

البـــابُ الأولـــ

الجمعان الكتابيان

- جمع أبي بكر
- جمع عثمان

الفصل الأول

جمع أبي بكر

١

يطلق « الجمع » – فى كلام أهل القرآن – إما على حفظه جميعه عن ظهر قلب ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ »[١] ، وإما على جمع متفرّقه فى صحف ، ثم جمع تلك الصحف فى مصحف واحد ، مرتب الآيات والسّور على النحو الذى تلقّته الأمة من النبي[٢] (ص).

والجمع بالمعنى الثانى هو الذى نقصده هنا .

٢

والثابت أن القرآن لم يُجمع على عهد النبي فى مصحف واحد :

عن زيد بن ثابت ، قال : « قُبض النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يكن القرآن جُمع فى شيء »[٣] .

وربما كان ذلك لأنّ القرآن ظلّ عشرين سنةً أو يزيد ينزل منجّماً ، ولأنّ النسْخ كان يرد على بعض الآيات ، فلو جُمِعَ القرآنُ وقتئذ ، ثم رُفِعَتْ تلاوة بعضه « لأدّى إلى الاختلاف واختلاط الدين ، فحفظه الله فى القلوب ، إلى انقضاء زمان النسخ »[٤] .

وقيل فى هذا أيضاً إن الله تعالى كان أمّن النّبي من النسيان بقوله : « سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰٓ .

---

(١) سورة القيامة / ١٧ .

(٢) عن ابن حجر العسقلانى : فتح الباري جـ٩ ص ٨ – بتصرف – (ط . البهية) .

(٣) نقله ابن حجر عن الجزء الأول من فوائد الدير عاقولى – انظر : فتح الباري جـ٩ ص ٩ ، وانظر : السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن جـ١ ص ٥٧ .

(٤) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن جـ١ ص ٢٣٥ .

إلاّ ما شاء الله »[١] ، أى ما شاء الله أن يُرفع حُكْمُه بالنسخ ؛ فلما تُوفى النبى (ص) أصبح النسيانُ ممكنَ الوقوع من الناس ، ومن هنا أصبحت الحاجة ماسّة إلى جمع القرآن وحفظه وتدوينه[٢] .

والنبى – فى حياته – كان بين ظهرانى المسلمين ، يقرأون القرآن بين يديه ، ويملكون الاسترشاد به هو نفسه فى شأن هذا الكتاب ، وفى كل شأن ، ولذلك كان الخطأ فى القرآن – على عهده – مأموناً تماماً .

وفى ذلك العهد ، كان الإسلام الناشئ لا يزال محدود الرقعة ، فلم تكن الحاجة إلى جمع القرآن فى نفس شدّتها على عهد أبى بكر ثم على عهد عثمان .

على أن الثابت أنّ النبىّ كان يستحفظ أصحابه ما ينزل عليه من القرآن عَقِب نزوله ، وكان له كتاب ، يكتبونَ – بين يديه ، وبأمره ، وإقراره – ما ينزل عليه . روى أحمد ، وأصحاب السّنن الثلاثة ، وصحّحه ابن حِبّان ، والحاكم ، عن ابن عباس ، عن عثمان ، قال :

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، مما يأتى عليه الزمان ، ينزل عليه من السّوَر ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء يدعو بعضَ من يكتب عنه ، فيقول : ضعوا هذا فى السّورة التى يذكر فيها كذا[٣] .

وكانوا – على ما اعتاد العرب – يكتبونه فى اللّخاف[٤] والعُسُب[٥] والأكتاف[٦]

---

(١) سورة الأعلى / ٦

(٢) انظر : الزركشى : البرهان جـ١ ص ٢٣٨

وعلى ذكر النّسْخ ، نذكر أنه ثبت فى الصحاح ، عن عائشة وابن عباس ، أن جبريل كان يعارض النبى – صلى الله عليه وسلم – بالقرآن ، فى كل عام مرة ، فلما كان العام الذى قُبض فيه عارضه به مرتين . والعرضةُ الأخيرة هى قراءة زيد بن ثابت وغيره ، وهى التى أمر الخلفاء الراشدون بكتابتها فى المصاحف (ابن تيمية : فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – نزل القرآن على سبعة أحرف ، وما المراد بهذه السبعة ص ٥٠ و ٥١)

وقد شهد زيد بن ثابت العرضة الأخيرة التى بين فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها لرسول الله ، وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات ، ولهذا اختير للجمعين الكتابيّين البكرى والعثمانى (انظر : الزركشى : المرجع السابق ص ٢٣٧).

(٣) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ٩ ص ٢٢ (ط . محبّ الدين الخطيب) .

(٤) واحدتها لخفة بضم اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الدقاق ؛ وقال الخطابى : صفائح الحجارة الرقاق ؛ قال الأصمعى : فيها عرض ودقة ؛ وفسره أبو ثابت أحد شيوخ ابن حجر بالخزف ، وهى الآنية التى تصنع من الطين المشوىّ (ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ٩ ص ١١ (ط . البهية) . وانظر : السيوطى : الإتقان جـ١ ص ٥٨ و ٥٩) .

(٥) جمع عسيب ؛ وهو جريد النخل . كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون فى الطرف العريض (السيوطى : نفس المرجع ص ٥٨).

(٦) جمع كتف ، مثل كَتِف وكَتِف ، أنثى ، وهو العظم العريض الذى للبعير أو الشاة ، كانوا إذا جفّ كتبوا عليه . وفى الحديث : « إيتونى بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً » (انظر : ابن منظور : لسان العرب . مادة (ك ت ف) وانظر : السيوطى نفس المرجع ص ٥٩).

والرقاع [١] والأقتاب [٢] وقطَع الأديم [٣] .

روى البخارى عن البَرَاء قال : لما نزلت « لاَ يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » [٤] ، قال النبى ، صلى الله عليه وسلم : « أُدع لى زيداً (يريد زيد بن ثابت) ، وليجىء بالكتفِ والدواة » . والمسلمون مجمعون على أن الصحابة ما كانوا يكتبون إلا ما كانوا يقطعون بسماعه من النبى ، صلى الله عليه وسلم [٥] .

والثابت أيضاً أنه ، فى زمن النبى (ص) ، كان تأليف ما نزل من الآيات المفرّقة فى سورها ، وجمعها فيها بإشارة منه . أخرج الحاكم – بسند على شرط الشيخين – عن زيد بن ثابت ، قال : كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نؤلف القرآن من الرقاع [٦] . قال البيهقى : الشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرَّقةِ فى سورها ، وجمعها فيها ، بإشارة من النبى ، صلى الله عليه وسلم [٧] .

وقد كان كل ما يكتب من القرآن – على عهد النبى (ص) – يُحفظ فى بيته . والشيعة يروون فى هذا « أن رسول الله – صلى الله عليه وآله – قال لعلى – عليه السلام – : يا علىّ ، إن القرآن خلف فراشى فى الصحف والحرير والقراطيس ، فخذوه ، واجمعوه ، ولا تضيعوه . . . إلخ » [٨] .

ولئن قيل إن الثابت المتواتر هو ما ألمعنا إليه قبلا ، وهو أن النبى (ص) لحق بالرفيق الأعلى والقرآن غير مجموع فى موضع واحد ولا مرتب السور [٩] ، لقد علمنا – وهذه حقيقة بالغة الأهمية – أن هذا كان من حيث الكتابة فقط لا من حيث الحفظ فى الصّدور .

---

(١) جمع رقعة . وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد (ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١١ ط . البهية ، والسيوطى : المرجع السابق) .

(٢) مفرده قتب وقَتْب ، وقد يؤنث ، والتذكير أعمّ ، وهو إكاف البعير ، أى الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه (انظر : لسان العرب – مادة (ق ت ب) وانظر : السيوطى : المرجع السابق)

(٣) الجلد المدبوغ (المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير – مادة « أدم »)

(٤) سورة النساء : ٩٥ .

(٥) انظر : محمد بخيت المطيعى : الكلمات الحسان ص ٤٨

(٦) المستدرك حـ٢ ص ٦١١ .

(٧) السيوطى : المرجع السابق حـ١ ص ٥٧ .

(٨) الكاشانى ملا محسن فيض : الصافى ص ٩ .

(٩) السيوطى : المرجع السابق .

٣

وتوفى النبى (ص) ، فقام بالأمر بعده أبو بكر ، وارتدّ بعض العرب عن الإسلام ، وظهر مسيلمة وأصحابه يدّعون النبوة . فتصدّى أبو بكر لقتال هؤلاء جميعاً . وقُتِل من الصحابة وقتئذ ممن حَفِظَ القرآنَ جَمْعٌ كبير ، فأثار ذلك الخوف على القرآن[1] فكان أول جمع كتابى له .

يروى البخارى فى صحيحه قصة هذا الجمع ، فيقول :[2] .

« . . . عن زيد بن ثابت ، قال :

أرسل إلىّ أبو بكر – مقتل أهل اليمامة[3] فإذا عمر بن الخطاب عنده .

قال أبو بكر – رضى الله عنه – :

إن عمر أتانى ، فقال : إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل فى المواطن[4] . فيذهب كثير من القرآن[5] . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن

---

(١) فى قصّة هذا القتال – فيما ذكر الحافظ ابن كثير : أن مسيلمة الكذّاب التقىَ معه من المرتدّين قريب من مائة ألف ، فجهّز الصدّيق لقتاله خالد بن الوليد ، فى قريب من ثلاثة عشر ألفا ، فالتقوا معهم ، فانكشف الجيش الإسلامىّ لكثرة من فيه من الأعراب .

فنادى القراء من كبار الصحابة : يا خالد ، خلّصنا ! يقولون : ميّزنا من هؤلاء الأعراب ، فتميّزوا منهم ، وانفردوا ، فكانوا قريبا من ثلاثة آلاف ، ثم صدقوا الحملة ، وقاتلوا قتالاً شديدا ، وجعلوا ينادون : يا أصحاب سورة البقرة ! فلم يزل ذلك دأبهم ، حتى فتح الله عليهم ، وولى جيش الكفر فارّا ، واتبعتهم السيوف المسلمة فى أقفيتهم قتلا وأسرا ، وقتل الله مسيلمة ، وفرّق شمل أصحابه ، ثم رجعوا إلى الإسلام .

ولكن ، قُتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة رضى الله عنهم ، فلهذا أشار عمر على الصّدّيق بأن يجمع القرآن الخ (فضائل القرآن ذيل تفسير الحافظ ابن كثير ص ١٥) .

ويشذّ المستشرق بروكلمان : فبدى تشككه من أن تكون معركة اليمامة تلك هى التى قدّمت الداعى إلى جمع القرآن (تاريخ الأدب العربى ، ترجمة عبد الحليم النجار حـ ١ ص ١٣٩) وقول بروكلمان هنا سيئ القصد وغير علمىّ ، والمسلمون لن يتركوا صحيح البخارى لتشكّك يكذب بالقرآن أصلاً

(٢) انظر : كتاب فضائل القرآن ، وانظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ ٩ ص ٨ – ١٣ (ط . البهيّة)

(٣) اليمامة واقعة اشتبك فيها المسلمون بمسيلمة الكذاب ، فى أهل اليمامة ، زمن الردّة ، وفيها استشهد من الصحابة نحو ٤٥٠ ، وقيل ٧٠٠ ، وقيل : أكثر ، وجملة القتلى من المسلمين ٩٦٠ أو يزيدون .

(انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ٣ ص ٢٥٢ ، فى حوادث السنة الحادية عشرة من الهجرة) .

(٤) المراد : الأماكن التى يقع فيها القتال .

(٥) يعنى بموت حفاظه ، ومن يثقون عن عدد التواتر فى نقل القرآن ، مما يجعله ظنيا لا يؤمن الغلط فيه .

قلت لعمر :

كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟ .

فقال عمر :

هذا والله خير

فلم يزل عمر يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك رأى عمر .

قال زيد :

وقال أبو بكر :

إنك رجلٌ شابٌّ [١] عاقل لانتّهمك ، وقد كُنت تكتب الوحى لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فتتبعْ القرآنَ واجْمعْه [٢] .

قال زيد :

فوا الله لو كلّفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىّ مما أمرونى به من جمع القرآن !

قلت :

كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فقال :

هو والله خير .

فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب ، واللّخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر التوبة « لَقَدْ جَآءَكُمْ . . . » [٣] مع أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى ، صلى الله عليه وسلم ، شهادته بشهادة رجلين ، لم أجدها مع أحد غيره ، فألحقتها فى سورتها .

---

(١) كان زيد وقتها فى الثانية والعشرين ، ذلك أنه كان ابن إحدى عشرة سنة ، حين قدم النبى (ص) المدينة (أبو الفدا : البداية والنهاية جـ ٥ ص ٣٤٦) .

(٢) فى شأن تردّد أبى بكر آنفا ، يقول محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية ، فى دار الخلافة لعثمانية، والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ :

« بتردّد الصدّيق رضى الله عنه – بادئ ذى بدء – إنما كان بملاحظة أنّ ذلك ربما يكون سبباً للتواكل فى حفظه ، والتكاسل فى استظهاره ، لا باعتبار التحرج فى الكتابة ، قال الله تعالى : « رسُولٌ مِّنَ اللهِ يتلوا صُحُفًا مُطهَرة » (سورة البينة ٢) . فأنّى يتصور التحرج من كتابة آيات الله فى الصحف مع وجود هذه الآية الكريمة ؟ » (مقالات الكوثرى ص ٨)

وهذا فهم واضح السّلامة .

(٣) سورة التوبة / ١٢٨

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قُبض ، ثم عند حفصة بنت عمر »[١] .

وحفصة هى إحدى زوجات الرسول ، وكانت تحفظ القرآن ، وكانت قارئة كاتبة وكان أبوها عمر أوصى إليها .

* * *

وفى شأن آيتى (التوبة) آنفًا ، نقول إنّ إجماع الصحابة على كتابتهما فى المصحف يستحيل أن يُبنى على رواية فردية .

وواضح من كلام زيد بن ثابت نفسه أنه كان يعرف هاتين الآيتين .

وإذا كان لا يعرفهما ، فكيف افتقدهما ؟

ويقول ابن حجر العسقلانى – معتضداً بعدة روايات موثّقة – إنّ أبا خزيمة لم ينفرد بها ، بل كان معه عمر . وزيد بن ثابت . وعثمان ، وأبىّ بن كعب[٢] .

وقد أخطأ بعض الرافضة فهم أقوال زيد بن ثابت آنفاً ، فادّعوا أن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف ، وجعلوا هذا من مطاعنهم فى القرآن الكريم . وقد أورد القرطبى – فى الرد عليهم[٣] – إجابتين فحوى أولاهما ما ذكرناه الآن .

٤

ومع أن الصحابة كانوا قد شاهدوا تلاوة القرآن من النبى عشرين سنة ؛

ومع أن القرآن كان – كما قلنا – مكتوباً فعلا على عهد النبى (ص) إلاّ أنه كان مفرّقاً ؛

ومع أن تزوير ما ليس منه كان مأموناً ؛

ومع أن هذا الجمع جمعَ أبى بكر كان – كما قال الحارث المحاسبى فى كتاب « فهم السنن » – « بمنزلة أوراق وُجِدت فى بيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) انظر : مكى بن أبى طالب : الإبانة عن معانى القراءات ص ٢٣ و ٢٤
والزركشى : البرهان حـ١ ص ٢٣٣ و ٢٣٤
والسيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥٧ .

(٢) انظر : فتح البارى حـ ٩ ص ١١ – ١٦ (ط . محبّ الدين الخطيب).

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن حـ ١ ص ٥٦.

فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء »(١) ؛

ومع أن زيد بن ثابت – الذى كان فى حكم رئيس لجنة الجمع – كان هو وغيره من الصحابة يحفظون القرآن ؛

ومع أنهم كانوا حرّاساً أمناء على القرآن ؛

فقد اتُّبع فى هذا الجمع منهجٌ دقيق حريص متحرِّج أعان على وقاية القرآن من كلّ ما لحق النصوص الأخرى من مظنّة الوضع والانتحال ، وعوامل النسيان والضياع :

١ – كان كلّ من تلقّى من رسول الله شيئاً من القرآن يأتى به(٢) . ومعلوم أن ذلك كان بكل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، والتى سنبسط القول فيها فى موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله .

٢ – وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعُسُب(٣) .

٣ – وكان لا يُكتب إلّا :

(ا) من عين ما كُتِب بين يدى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لا من مجرد الحفظ(٤) ، مع المبالغة فى الاستظهار والوقوف عند هذا(٥) .

(ب) وما ثبت أنه عرض على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عام وفاته ، دون ما كان مأذوناً فيه قبلها(٦) .

(جـ) وما ثبت أنه من الوجوه التى نزل بها القرآن(٧) .

٤ – وكانت كتابة الآيات والسور على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم(٨) .

---

(١) انظر : الزركشى : البرهان حـ١ ص ٢٣٨

والسيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥٨

وعبارة المحاسبى الآنفة مسبوقة بقوله : « كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرّقاً فى الرقاع والأكتاف والعُسُب ، وإنما أمر الصّديق بنسخها من مكان إلى مكان ».

(٢) انظر : ابن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٢٩ . (٣) انظر : نفس المرجع .

(٤) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١٠ (ط . السلفية)

(٥) نفس المرجع ص ١٢

(٦) انظر : القسطلانى : لطائف الإشارات . الورقة ٦ من المخطوطة رقم ٤٦ قراءات ، بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(٧) السيوطى : المرجع السابق

(٨) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١٢ (ط . السلفية)

٥ – وكان لا يقبل من أحد شيء حتى يشهد شهيدان ، أى أنه لم يكن يُكتفى بمجرد وجدان الشيء مكتوباً حتى يشهد به من تلقّاه سماعا [١] .

٦ – وبأمر أبى بكر ، كان عمر وزيد يقعدان على باب المسجد – وهو وقتئذ مقرّ لجنة الجمْع – ليكتبا ما يشهد عليه الشاهدان .

* * *

والتزمت اللجنة بهذه القواعد التزاما كاملا وصادقاً ، حتى قيل إن عمر نفسه أتى بما سمّوه بآية الرجم ، فلم يكتبها زيد ، لأن عمر كان وحده [٣] .

وكذلك من دلائل الالتزام بتلك القواعد ، ما أخرجه ابن الأنبارى فى (المصاحف) ، ونقله السيوطى فى تفسيره لآية : « حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ والصَّلوةِ الْوُسْطَى »[٤] من أنّ حفصة أمّ المؤمنين وابنة عمر بن الخطاب – كما أسلفنا – قالت : إذا انتهيتم إلى هذه الآية فأخبرونى ، فلما بلغوا إليها ، قالت : اكتبوا : « والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر » . فقال لها عمر أبوها : ألك بيّنة بهذا ؟ قالت : لا . قال : فوالله لا نُدخل فى القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بيّنة [٥] .

---

(١) قال ابن حجر : وكان المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب (فتح البارى : حـ ٩ ص ١١ – ط . البهية) .

٢) عند السخاوى : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن .

وعند السيوطى : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك مما عُرض على النبى صلى الله عليه وسلّم ، عام وفاته . (انظر : الإتقان حـ١ ص ٥٨)

(٣) نفس المرجع

وقد أخرج أحمد ، والطبرانى فى « الكبير » ، من حديث أبى أمامة بن سهل ، عن خالته العجماء : « إن فيما أنزل الله من القرآن : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة مما قضى من اللذة » . وأخرجه ابن حبّان ، فى صحيحه ، من حديث أبىّ بن كعب بلفظ : « كانت سورة الأحزاب تُوازى سورة البقرة ، وكان فيها آية الرجم : « الشيخ والشيخة . . . الحديث » (انظر : الشوكانى : نيل الأوطار حـ٧ ص ٩١)

والشك فى قرآنية هذا القول كبير جداً ، وله ما يبرره . يقول مصطفى صادق الرافعى تعقيباً عليه : « فانظر أى نظم هذا . . ونحن لا نتحرج أن نقسم أن (الشيخ والشيخة) و(فارجموهما البتة) مما لا يمكن بحال أن يكون من نظم القرآن ، وأن ذلك من اللفظ الدخيل والكلام المعسول الذى لا يشابه القرآن فى جزالته ، وقوة أسره ، ودقة نظمه ، وصلابة معجمه ، وولى من جاء بها ثم ولى » (إعجاز القرآن ص ٢٩) .

وهذا – طبعاً – لا ينفى علم المسلمين الوثيق بأن الرجم من فرائض الله تعالى .

(٤) سورة البقرة : ٢٣٨ .

(٥) انظر : السيوطى : الدر المنثور حـ١ ص ٣٠٢ و٣٠٣ .

٥

وحَظِيَ عمل أبي بكر هذا برضى المسلمين : أخرج ابن أبي داود فى (المصاحف) بسند حسن عن عبد خير ، قال : سمعت عليًّا يقول : أعظم الناس فى المصاحف أجراً : أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ! هو أول من جمع بين اللوحين [1] .

والحقّ أن لهذا الجمع فضلاً كبيراً ، فقد تدارك – فى وقت مبكّر – كلّ الأصول التى كُتب فيها القرآن ، وأفاد منها قبل أن يتفرّق شيء منها ، أو يضيع ، أو تعدو عليه عوامل البِلى .

٦

ولقد اعترض بعض الروافض – بَعْدُ – على جمع القرآن . ولعلّ ابن حجر العسقلانى أن يكون قد جمع كلّ الرّدود على هذا الاعتراض .

قال ابن حجر :

« سُؤِّل لبعض الروافض أن يوجّه الاعتراض على أبي بكر بما فعل من جمع القرآن فى المصحف ، فقال : كيف جاز أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال :

والجواب عن ذلك :

أنه لم يفعل ذلك إلاّ بطريق الاجتهاد السّائغ الناشئ عن النصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامّتهم .

وقد كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أذن فى كتابة القرآن ، ونهى أن يكتب معه غيره ، فلم يأمر أبو بكر إلاّ بكتابة ما كان مكتوباً ، ولذلك توقف زيد عن كتابة الآية من آخر سورة « براءة » حتى وجدها مكتوبة ، مع أنه كان يستحضرها ومن ذكر معه .

وإذا تأمل المنصف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم أنه يُعدّ فى فضائله ، وينوّه بعظم منقبته ، لثبوت قوله ، صلى الله عليه وسلم : « من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » . فما جمع القرآن أحدٌ بعده الا وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة .

---

(١) المصاحف ص ٥

وقد كان لأبى بكر من الاعتناء بقراءة القرآن ما اختار معه أن يردّ على ابن الدَّغِنَة جواره بجوار الله ورسوله[١] .

وقد أعلم الله تعالى فى القرآن أنه مجموع فى الصحف فى قوله : « يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً »[٢] .

وكان القرآن مكتوبا فى الصُّحف ، لكن كانت مفرّقة ، فجمعها أبو بكر[٣] » .

٧

وقد قيل إنّ آخرين من الصحابة سبقوا أبا بكر إلى جمع القرآن . ونحن مناقشو هذه الروايات :

١ — روى بعض الشيعة أن عليًّا ، لما أراه النبي (ص) القرآن خلف فراشه فى الصّحف والحرير والقراطيس ، وطلب إليه جمعه ، انطلق فجمعه فى ثوب أصفر ، ثم ختم عليه فى بيته ، وقال : لا أرتدى حتى أجمعه .

وقال راوى الخبر :

إنْ كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه[٤] .

ويردّ هذه الرواية أنّ فى أعقابها — فى مصدرها — قصةً لم يروها غير غلاة الشيعة ، ومؤداها أنّ عليًّا جَمَع القرآن ، وجاء به إلى المهاجرين والأنصار ، « فلما فتحه أبو بكر ، خرج فى أول صفحة فتحها فضائح القوم ، فوثب عمر ، وقال : يا علىّ ! اردده ، فلا حاجة لنا فيه » .وتقول القصة : إن عمر دبّر فى قتل علىّ ، على يد خالد بن الوليد ، وإن عليًّا قال لعمر لما سأله إحضار مصحفه : « إنّ القرآن الذى عندى لا يمسّه إلاّ المطهَّرون والأوصياء من وُلْدى » . فقال عمر : « فهل وقتٌ لإظهاره معلوم ؟ » قال علىّ : « نعم ، إذا قام القائم من وُلْدى يُظهره ، ويحمل الناس عليه ، فتجرى ألْسِنة به »[٥] .

والوضع ظاهر فى هذه القصة الحاشدة بالأقوال الخطيرة ، وذات اللون الشيعىّ الفاقع ، والتى سنناقشها فى فصل تال فنجدها تحمل أسباب رفضها .

---

(١) انظر هذه القصة فى : ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦.

(٢) سورة البينة / ٢.

(٣) انظر : فتح البارى جـ ٩ ص ١٠ (ط . البهية) ، وانظر . محمد بخيت المطيعى : الكلمات الحسان ص ٢١

(٤) الكاشانى ملا حسن فيض : الصافى ص ٩ (٥) نفس المرجع ص ١٠ .

وثمة رواية أخرى بأن علياً جَمَع القرآن عقب وفاة النبي (ص) مباشرة ، وأن ذلك شَغَله عن بيعة أبي بكر [١] ، ولكن التحقيق يثبت أن بعض طرق هذه الرواية – وهو ما أخرجه أبو داود عن طريق ابن سيرين – ضعيف ، وبعض طرقها – وهو ما أخرجه غير واحد من رواية أبي حيان التوحيدي – موضوع . أما الذي صحّ – كرواية أبي الضريس في فضائل عليّ فمحمول على الجمع في الصدر ، أي على الحفظ عن ظهر قلب [٢] .

يقول السجستاني : « لم يذكر (المصحف) أحد إلاّ أشعث ، وهو ليّن الحديث ، وإنما قال (أي علي) : حتى أجمع القرآن ، يعني أتمّ حفظه » [٣] .

هذا ، وقد قيل إن جمع عليّ كان أشبه بكتاب علم ، وكانت فيه أشياء كالناسخ والمنسوخ ، وإذن فصورته غير صورة الجمع البكري ، وغرضه غير غرضه [٤] .

على أن وجود هذا الكتاب مشكوك فيه أصلاً ، فابن سيرين يقول : « تطلّبتُ ذلك الكتاب ، وكتبتُ فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه [٥] » .

وربّما عضد أولية جمع أبي بكر ما أوردناه آنفاً عن عليّ نفسه ، حيث يقول : « أعظم الناس في المصاحف أجراً : أبو بكر ، رضي الله عنه ! رحمة الله على أبي بكر ! هو أول من جمع بين اللوحين [٦] » .

* * *

٢ – ورواية أخرى أخرجها ابن أبي داود من طريق الحسن ، ونصها : « أن عمر سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل : كانت مع فلان ، قُتِل يوم اليمامة ، فقال : إنّا لله ! وأمر بجمع القرآن ، فكان أول من جمعه في الصحف [٧] » .

---

(١) ابن أبي داود السجستاني : المصاحف جـ ١ ص ١٠ ، والسيوطي : الإتقان جـ ١ ص ٥٧ و ٥٨ .

(٢) انظر : الألوسي : روح المعاني جـ ١ ص ٢١ .

(٣) السجستاني : المرجع السابق .

وانظر : ابن كثير الدمشقي : فضائل القرآن ص ٢٥ .

(٤) انظر : السجستاني : المرجع السابق . (٥) انظر : الألوسي : المرجع السابق .

(٦) انظر : السيوطي : الإتقان جـ ١ ص ٥٨ .

(٦) نفس المرجع ، وانظر : ابن أبي داود السجستاني : المصاحف جـ ١ ص ٥ .

(٧) نفس المرجع ؛ وبهذا عبر القرماني في مختصره ، وابن الجوزي في « تاريخ عمر بن الخطاب » .

وانظر : ابن أبي داود : المصاحف ص ١٠

والسيوطي : الدر المنثور جـ ١ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

وابن عساكر : التاريخ الكبير جـ ٥ ص ١٢٣ .

ولكن إسناد هذه الرواية منقطع[١] . والظن أنها لا تقصد أن تعدو رواية البخارى التى أسلفناها ، والتى تُقرر أن عمر هو فعلاً صاحب فكرة الجمع الأول . وأنه أشار بها على أبى بكر ، ولم يزل يراجعه حتى شرح الله لها صدره[٢] .

وقد تلقَّف بعض المستشرقين هذه الرواية الثابت انقطاعها ، واتخذوها – مع وَهنها – أساساً لأفكار تضادّ الروايات الإسلامية ولو كانت موثَّقة فى (صحيح البخارى) وباقى (الصِّحاح) :

فـ (شفالى) Schwally – كما يقول بروكلمان –« أيَّد الشكّ فى صحة الرواية القائلة بأنّ أبا بكر الذى أمر بجمع القرآن »[٣] .

ومثل هذا الشك المجانف للتاريخ الثابت صدر أيضاً عن بروكلمان ، فهو يقول فى جزم : « على أنّ الخليفة عمر هو الذى أمر زيد بن ثابت . . أن يقوم بجمع القرآن وكتابات الوحى »[٤]

بل إن بروكلمان تعمّد الشكّ فى الباعث الذى دعا إلى الجمع البكرى ، وهو – كما تذكر الروايات الإسلامية الوثيقة – قتل عدد كبير من القراء فى معركة اليمامة ، فقال متحكّما وبغير بيّنة : « ومما يَحتمل كثيراً من الشك ما ذكرته الرواية من أنّ معركة اليمامة الحاسمة مع مسيلمة . . . . . والتى قتل فيها عدد كبير من قراء الصَّحَابة هى التى قدّمت الداعى إلى جمع القرآن »[٥].

ويخْبط بروكلمان – وهو يتحدث عن جمع القرآن – فى أخطاء مسمومة المقصد ، فهو يقول : « لقد جمعت قد يماً – بلا ريب – سور متفرّقة فى مجموعات تتميز بأحرف من الهجاء فى فواتحها ، فبقيت لذلك على تأليفها ، ومن أقدم هذه السّور وأهمّها على وجه الخصوص مجموعة آل حاميم »[٦].

ويمضى بروكلمان فى منافرة العلمية ، وفى ترويج الزائف والمعتلّ ، فيقول عن ابن مسعود ما لم تَقُله أية رواية معترف بصحتها ، يقول : « إنّ ابن مسعود أبقى الحواميم على طولها فى الجمع الأول ، وكان يَقْسم سوراً أخرى لطولها »[٧].

* * *

---

(١) السيوطى : الإتقان جـ ١ ص ٥٨

(٢) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٠ (ط . البهية)

(٣) تاريخ الأدب العربى (ترجمة عبد الحليم النجار) جـ ١ ص ١٤٠ و ٢٢٦

(٤) نفس المرجع .

(٥) نفس المرجع ص ١٣٩ .

(٦) نفس المرجع .

(٧) نفس المرجع .

٣ – وروى عن أبى بريدة أنه قال :

« أول من جمع القرآن فى مصحف سالمٌ مولى أبى حذيفة : أقسم لا يرتدى برداء حتى يجمعه ، فجمعه[١] » .

والشك يحيط بهذه الرواية أيضاً إحاطة تُسقطها :

فنى رأى السيوطى – كما يذكر الألوسى – أنّ قول أبى بريدة ، مع غرابته وانقطاعه ، محمول على أنّ سالماً هو أحد الجامِعِين بأمر أبى بكر .

ولكن الألوسىّ يصف قول السّيوطى بأنه عثرة لا يقال لها : لعاً ، لأنّ سالماً قُتل فى وقعة اليمامة التى كان موت الحفّاظ فيها هو سبب الجمع[٢] .

* * *

٤ – وقد أورد أبو عبيد القاسم بن سلام[٣] فى أول كتابه فى القراءات أسماء من نُقل عنهم شىء من وجوه القراءة من الصحابة ، فذكر منهم ابن عباس ، وذكر ذلك ابن الجزرى فى « النشر »[٤] فقال آرثر جفرى(Arthur Jeffery)فى غير تثبيت : « إن اسم ابن عباس ورد فى قوائم الذين جمعوا القرآن فى حياة النبى »[٥] ولكن هذه الرواية – بهذا الفهم الخاطئ – تتعرض للشك إذا عرفنا أن ابن عباس وُلِدَ – على الأثبت – قبل الهجرة بثلاث ، وكان له ثلاث عشرة سنة عند وفاة الرسول[٦] . وهذه سنّ لا يقوى صاحبها – غالباً – على مثل هذه المهمّة الدقيقة . وقد عاد جفرى فعبّر هو نفسه عن مثل هذا الشك[٧] .

* * *

تلك بواعث الجمع الأول للقرآن ، وتلك مخطّطاته . فماذا عن الجمع العثمانى ؟

---

(١) السيوطى : المرجع السابق .

(٢) روح المعانى جـ ١ ص ٢٢ .

(٣) كان أبو عبيد مفتيا فى القرآن والفقه والأخبار والعربية ، حسن الرواية ، صحيح النقل . وكان أول أمره حمّالا وعرف من كتبه نيف وعشرون كتاباً ، وهو أول من استقصى وجوه القراءات فى كتاب . وقد روى القراءة عن الأعمش . مات بمكة سنة ٢٢٣ أو ٢٢٤ عن ٦٧ سنة ، وقيل سنة ٢٣٠ ؛ (انظر السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة جـ ٢ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ ، وابن النديم : الفهرست ص ٧١ ، وابن الجزرى : طبقات القراء جـ ١ رقم ٢٥٢٢) .

(٤) جـ ١ ص ٦ .

(٥) انظر : Materials for the History of the Text of the Quran, p. 193.

(٦) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٩٠ .

(٧) Jeffery, p. 193.

الفصل الثانى

جمع عثمان

١

تلقى الصحابة القرآن ، عن النبى (ص) ، ثم انتشروا بعيداً عن منزل الوحى ، يلقنون الناس القرآن على النحو الذى تلقوه من النبى ، فوقعت بينهم اختلافات يسيرة :

(ا) إما بألفاظ مختلفة فى السّمع لا فى المعنى ، كقراءة « جذوة » مثلثة الجيم[١] .

(ب) وإما فى السمع والمعنى ، كقراءة « يُسَيِّرُكُمْ » و « يَنْشُرُكُمْ »[٢]

(حـ) وإما مخالفة للخط وغير مخالفة :

١ – بزيادة ونقص ، نحو : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى »[٣] بنقص لفظ « ومَا خَلَقَ »[٤]

٢ – واختلافات حركات وأبنية ، نحو « فَيَقْتُلُونَ »[٥] مبنية للفاعل فى إحدى الكلمتين ، و « يُقْتَلُونَ » مبنية للمفعول فى الكلمة الأخرى[٦] .

---

(١) سورة القصص ، من الآية ٢٩ .

ويقرأ عاصم بفتح الجيم ، ويفتحها حمزة وخلف ، ويكسرها الباقون .

(انظر : ابن الجزرى : النشر فى القراءات العشر حـ٢ ص ٣٤١) .

(٢) سورة يونس ، من الآية ٢٢ .

والثانية قراءة ابن عامر وأبى جعفر (انظر : ابن الجزرى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٢٨) .

واللفظان بمعنى واحد ومتلازمان ، فإنّ التيسير يلزمه النشر .

(٣) سورة الليل / ٣ .

(٤) روى أن ابن مسعود وأبا الدرداء كانا يسقطان « وما خلق » (انظر : القرطبى : الجامع لأحكام القرآن حـ ٢٠ ص ٨١) . ومعلوم أن هذه القراءة شاذة ولا يقرأ بها .

(٥) سورة التوبة : من الآية ١١١ .

(٦) أهل الكوفة – غير عاصم – يقرأون : « فيقتلون » بضم الياء ، ويقتلون بفتح الياء . والباقون يقرأون : الأولى بفتح الياء ، والثانية بضمها . (انظر : الطبرسى : مجمع البيان فى تفسير القرآن حـ ١٠ ص ١٤٥ و١٤٦

وانظر : الفخر الرازى : التفسير الكبير حـ ١٦ ص ٢٠٠) .

٣ – واختلاف حروف فى موضع أحرف أخر ، مثل : « طَلْحٍ مَّنْضُودٍ »[١] و « طلع منضود »[٢] .

وكما يقول مكّى بن أبى طالب : « وكان ذلك قد تعارف بين الصحابة على عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – فلم يكن ينكر أحدٌ ذلك على أحد ، لمشاهدتهم من أباح ذلك ، وهو النبى – صلى الله عليه وسلّم – ، فلما انتهى ذلك الاختلاف إلى مالم يعاين صاحبَ الشرع ، ولا علم بما أباح من ذلك ، أنكر كلُّ قوم على الآخرين قراءتهم ، واشتدّ الخصامُ بينهم »[٣] .

على أنه من الواضح أن الاختلاف فى نصٍّ ما قد يُفْضِى إلى مخالفته ، وقد يُسهِّل تحريفَه وتبديلَه ، فوق ما يؤدِّى إليه من المناقضة والملاحاة .

٢

وفى سنة ٢٥ من الهجرة : السنة الثالثة أو الثانية من خلافة عثمان ، بعد أن قُبِض الرسولُ بخمس عشرة سنة ، فُتحت أرمينية ، وكان عثمان أَمَـر أهلَ الشام وأهلَ العراق أن يجتمعوا على ذلك[٤] ، وكان حذيفة بن اليمان[٥] من جملة من غزا معهم ، وكان هو على أهل المدائن ، وهى من جملة أعمال العراق .

« وتنازع أهل الشام وأهل العراق فى القرآن : أهل الشام يقرأون بقراءة أبىّ بن كعب ، فيأتون بمالم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فيكفّر بعضهم بعضاً »[٦] .

---

(١) سورة الواقعة / ٢٩

(٢) رُوى أن على بن أبى طالب قرأ : « وطلع » بالعين ، ثم عاد فرجع إلى ما فى المصحف ، وعلم أنه هو الصواب . (القرطبى : الجامع لأحكام القرآن حـ١٧ ص ٢٠٨ و٢٠٩) .

(٣) انظر : الإبانة عن معانى القراءات ص ٢٧ و٢٨ و٢٩ .

(٤) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ٩ ص ١٣ (ط . البهية) .

(٥) صحابى مشهور ، وشهد أُحُدًا مع أبيه ، وروى عنه جماعة من كبار الصحابة ، وكان صاحب سر رسول الله ص) فى المنافقين ، يعلمهم وحده ؛ وكان يكتب خرص ثمر الحجاز .

وانظر ترجمته فى :

ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة حـ١ ص ٣٣٢ و٣٣٣ .

والنووى : تهذيب الأسماء واللغات حـ١ ص ١٥٣ و١٥٤ و١٥٥

والثعالبى : لطائف المعارف ص ٤٠ .

(٦) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ٩ ص ١٤ (ط . البهية) .

ورأى حذيفة ناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المِقداد ، ورأى أهلَ البصرة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرأوا على أبى موسى ، ويسمّون مصحفه « لباب القلوب »(١)

وغضب حذيفة لما سمع ، و « احمرّت عيناه » كما تقول الرواية(٢). وقيل فى سبب غضبه إنّ اثنين اختلفا فى آية من سورة البقرة : قرأ هذا : « وأتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلّهِ »(٣) ، وقرأ هذا : « وأتموا الحج والعمرة للبيت »(٤) .

فقام حذيفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : هكذا كان مَنْ قَبْلكم ، اختلفوا ! والله لأركبن إلى أمير المؤمنين .

وجاء مفزعاً إلى المدينة ، ولم يدخل بيته حتى أتى عثمان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى !(٥) ، أو قال : أنا النذير العريان ! فأدركوا الأمة !(٦).

وصادف أن عثمان أيضاً كان وقع له نحو ذلك : « كان المعلم يعلِّم قراءة الرجل ، والمعلم يعلِّم قراءة الرجل ، فجعل العلماء يتلقّونه فيختلفون ، حتى كفّر بعضُهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان ، فتعاظم فى نفسه ، فقال : أنتم عندى تختلفون ؟ ! فمن نأى عنى من الأمصار أشد

---

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٣ ص ٨٥ و٨٦

(٢) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١٤ (ط . البهية) .

(٣) سورة البقرة ، من الآية ١٩٦ ، وهكذا هى فى المصحف العثمانى .

(٤) قيل إنها كانت هكذا فى قراءة : عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وعلقمة .
(انظر : الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن حـ٢ ص ١٢٠)
والقرطبى : الجامع لأحكام القرآن حـ٢ ص ٣٦٩ .)
ويقول أبو حيان الأندلسى : ينبغى أن يُحمل هذا كلّه على التفسير ، لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليه المسلمون . (البحر المحيط حـ٢ ص ٧٢ .)

(٥) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١٤ و١٥ (ط . البهية) .
ويقول ابن كثير الدمشقى تعقيباً على قول حذيفة بن اليمان : « قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » :
« . . . وذلك أنّ اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب :
فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة
والسّامرة يخالفونهم فى ألفاظ كثيرة ومعان أيضا . وليس فى توراة السّامرة حروف الهمزة ، ولا حرف الهاء ، ولا الياء .
والنصارى أيضاً بأيديهم توراة يسمّونها (العتيقة) ، وهى مخالفة لنسختى اليهود والسّامرة .
وأما الأناجيل التى بأيدى النصارى فأربعة : إنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل متى ، وإنجيل يوحنّا ، وهى مختلفة أيضاً اختلافاً كثيراً . . . إلخ (فضائل القرآن – ذيل تفسير الحافظ ابن كثير ص ١٩) .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٣ ص ٨٦

اختلافاً ! »[١] .

وهكذا ، لما جاء حذيفة عثمان ، وأعلمه باختلاف أهل الأمصار ، تحقق عند عثمان ما ظنه من ذلك[٢] .

واستشار عثمانُ الصحابةَ ، قال : ما تقولون فى هذه القراءة ، فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفراً ؟

قال الصحابة[٣] :

فما ترى ؟

قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف .

قال الصحابة : فنعم ما رأيت ![٤] .

٣

هنالك أرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، يريد ما كان أبو بكر قد أمر زيد بن ثابت بجمعه[٥] .

وتقول بعض الروايات إن حفصة أبَتْ ، حتى عاهدها عثمان ليردّنّ المصحف إليها ، فنسخ منها ، ثم ردّها[٦] .

---

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ١٤

(٢) روى مسلم أن حذيفة قال : أخبرنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة (الجامع الصحيح حـ٨ ص ١٧٢ و١٧٣)

وقد قيل – بناء على ذلك – إنه لا يبعد أن يكون النبى قد أسرّ إلى حذيفة بدعوة عثمان إلى جمع القرآن على حرف واحد إذا رأى اختلاف الناس فى قراءته ، فكتم حذيفة هذا الأمر حتى جاء وقته (انظر : محمد طاهر بن عبد القادر الكردى : تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه – هامش ص ٣٣) .

(٣) الرواية هنا رواية على بن أبى طالب الذى حكى أن عثمان ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ من الصحابة.

(٤) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٥ .

(٥) نفس المرجع .

(٦) فلم تزل عندها ؛ وكان مروان أمير المدينة من جهة معاوية يسألها هذه الصحف فتأبى أن تعطيه . فلما توفيت حفصة ، ورجعوا من دفنها ، أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه تلك الصحف ، فأرسل بها إليه ، فأمر بها مروان فشققت . وقال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت – إن طال بالناس زمان – أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب (ابن حجر العسقلانى : نفس المرجع ص ١٦ ط . البهية)

واللافت أن المحافظة على هذه الصحف كانت بالِغَةً ، فقد كانت عند أبى بكر لم تفارقه فى حياته ، ثم عند عمر أيَّامَه ، ثم كانت عند حفصة لا تُمكِنُ منها كما أوضحنا[١] .

وأمر عثمانُ زيدَ بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص[٢] ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام[٣] ، فنسخوا هذه الصّحف فى المصاحف .

وفى رواية مصعب بن سعد بن أبى وقاص أن عثمان قال : مَنْ أكتَبُ الناس ؟

قالوا : كاتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – زيد بن ثابت .

قال : فأى الناس أعرب ؟ (وفى رواية : أفصح) .

قالوا : سعيد بن العاص .

قال عثمان : فَلْيُمْلِ سعيد ، وليكْتُب زيد[٤]

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نَزَلَ بلسانهم[٥] .

كان اختيار زيد وسعيد للمعنى المذكور فيهما فى رواية مصعب ، ثم احتاجوا إلى من يساعد فى الكتابة ، بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التى تُرسَل إلى الآفاق ، فأضافوا إلى زيد جماعة ، منهم : مالك بن أبى عامر جدّ مالك بن أنس ، وكثير بن أفلح . وأبىّ ابن كعب ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس[٦] .

وعن محمد بن سيرين : أن عثمان جمع اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار ، فيهم أبىّ ابن كعب ، وزيد بن ثابت فى جمع القرآن[٧] .

بيد أن الذهبى يقول . « وما أحسب أن عثمان نَدَبَ للمصحف أبيًّا ، ولو كان كذلك لاشتهر ، ولكان الذِّكْر لأبىّ لا لزيد »[٨] .

وتفيد بعض الروايات أن هذه اللجنة ضمّت أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب ،

---

(١) انظر : الزركشى : البرهان جـ ١ ص ٢٣٩ .

(٢) فى البرهان للزركشى (جـ ١ ص ٢٣٦) : سعد بن أبى وقاص . ولعله خطأ فى النسخ .

(٣) انظر : ابن الجزرى : النشر فى القراءات العشر جـ ١ ص ٧ .

(٤) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٥ (ط البهية) .

(٥) نفس المرجع ص ١٦ .

(٦) نفس المرجع ص ١٥ و ١٦ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى – فى ترجمة أبىّ بن كعب جـ ٣ ص ٦٣ (ط . ليدن سنة ١٣٢١ هـ) .

(٨) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٢٨٧ .

وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأَبانَ بن سعيد [١] .

وفى شأن « أبان » ، تذكر بعض الروايات أن عثمان قال لزيد : « إنى جاعل معك رجلاً لبيباً فصيحاً ، فما اجتمعتما عليه فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلىّ » ، فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص [٢] .

وربما كان القصد من كل هذه الجماعة المساعدة المشتهر أعضاؤها بالضبط والمعرفة أن ينضمّ العدد إلى العدالة ، وإلا فقد كان زيد قادراً بذاته على هذه المهمة [٣] .

وهكذا — كما قال القاضى أبو بكر فى « الانتصار » — : « لم يقصد عثمانُ قَصْدَ أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قَصَدَ جَمْعَهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخْذَهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشُّبْهة على من يأتى بعدُ » [٤] .

٤

وقد أثار تشكيل لجنة الجمع على ذلك النحو عبدَ الله بن مسعود الذى شقّ عليه صرفه عن كتابة المصحف ، حتى قال : يا معشر المسلمين ! أُعزل عن نسخ كتابة المصاحف ، ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صُلْبِ رجل كافر ، يريد زيد بن ثابت [٥] .

وابن مسعود حقيق أن يكون حاضرَ لجنةٍ تجمع القرآن :

---

(١) انظر : الحداد خلف الحسينى : الكواكب الدرية ص ٢١ .

(٢) انظر : الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن جـ ١ ص ٦٠ (ط . المعارف بمصر) .
والطحاوى : مشكل الآثار جـ ٤ ص ١٩٣ .
ويقول القرطبى ، فى شأن اشتراك (أبان) فى الجمع العثمانى :
« قال الطبرى فيما روى : إنّ عثمان قَرَن بـ (زيد) أبان بن سعيد بن العاص وحده ؛ وهذا ضعيف ، وما ذكره البخارى والترمذىّ أصحّ (انظر : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٥٢) .

(٣) انظر : الحداد خلف الحسينى : الكتاب السابق ص ٢١ و ٢٢ .

(٤) نقلاً عن الزركشى : البرهان جـ ١ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، والسيوطى : الإتقان جـ ١ ص ٦٠ .

(٥) انظر : فتح البارى جـ ٩ ص ١٦ (ط . البهية) . وانظر أقوالاً أخرى من هذا القبيل فى : ابن أبى داود المصاحف جـ ١ ص ١٣ — ١٨

١ - فهو أول من جهر به ، بعد رسول الله (ص) ، بمكة ، أيام شدّة المسلمين وضعفهم .

روى ابن إسحاق :

« اجتمع يوماً أصحاب رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – ، فقالوا : والله ما سَمِعَتْ قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطّ ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوه ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا !

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعونى ، فإنّ الله سيمنعنى .

قال راوى القصة عروة بن الزّبير : فغدا ابنُ مسعود حتى أتى المقام فى الضُّحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ، ثم قرأ : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرحيم » ، رافعاً بها صوته ، « الرَّحْمٰنُ ، عَلَّمَ الْقُرْءانَ » (١) .

قال : ثم استقبلها يقرؤها .

قال : فتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أمّ عبد ؟

قال : ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثّروا فى وجهه .

فقالوا : هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ما كان أعداء الله أهونَ علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثله غداً .

قالوا : لا ! حسبك ! قد أسمعتَهم ما يكرهون »(٢) !

٢ – وقد أعطى ابن مسعود حظاً عظيماً فى تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله ، حتى لقد كان النبى نفسه يقول : « من أحبّ أن يقرأ القرآن غَضّاً كما أُنزل فليقرأه قراءة ابن أمّ عبد » .

يعنى : عبد الله بن مسعود (٣) .

وقد أحبّ النبى (ص) أن يسمع القرآن منه ، ولما قرأ أبكى رسول الله (٤) .

---

(١) سورة الرحمن / ١ و ٢ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ٣٣٦ و ٣٣٧ .
والمقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٠ .

(٣) انظر : مسند أحمد بن حنبل ، باب فضل القراءة على قراءة عبد الله بن مسعود ، وانظر : أحمد عبد الرحمن البنا : الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى جـ ١٨ ص ٢١ .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٦ – كتاب فضائل القرآن و ٣٥ – باب البكاء عند قراءة القرآن ، وانظر : الفتح الربانى جـ ١٨ ص ٢١ .

٣ – بل إن النبي أمر بتعلّم القرآن من أربعة : أولهم عبد الله بن مسعود . روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت النبي – صلى الله عليه وسلّم – يقول : استقرئوا القرآن من أربعة : عبد الله بن مسعود (فبدأ به) ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل[١] .

٤ – وكان ابن مسعود يقول : « لقد أخذت من فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سبعين سورة ، وإنّ زيد بن ثابت لصبي من الصبيان »[٢] وفى رواية : « وزيدٌ له ذؤابةٌ يلعب مع الغلمان »[٣] . وكان يقول : « والله الذى لا إله غيره ! ما أُنْزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أُنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلمَ منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »[٤] .

٥ – وثمة رواية تقرر أنّ ابن مسعود شهد ، عقب العرضة الأخيرة ، ما نُسخ من القرآن وما بُدّل[٥] .

٦ – وكان ابن مسعود – فيما يذكر الرّواة – « ممن يتحرَّى فى الأداء ، ويشدّد فى الرواية ، ويزجر تلامذته عن التّهاون فى ضبط الألفاظ »[٦] .

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٢ – كتاب فضائل أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – و ٢٩ – باب مناقب سالم مولى أبى حذيفة . وسالم قتل يوم اليمامة شهيداً . (وانظر : النووى : تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٢٠٦ رقم ١٩٥) .

أما أبيّ بن كعب فقد روى البخارى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال له : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : « لم يكن الذين كفروا » قال : وسمانى ؟ قال : نعم ، فبكى . (أخرجه البخارى فى : ٦٣ – كتاب مناقب الأنصار : ١٦ – باب مناقب أبيّ بن كعب .

ومفهوم أنّ قراءة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على أُبيّ هى للإرشاد والتعليم .

وعن أبى عبيد الله القاسم بن سلّام ، قال : معنى هذا الحديث : أنْ يتعلم أُبَيّ قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلّم قراءة أبيّ رضى الله تعالى عنه (انظر : ابن مجاهد : السبعة فى القراءات ص ٥٥) .

وأما معاذ بن جبل ، فأحد الذين كانوا يفتون على عهد الرسول ، وظفر منه بالثناء الكثير (انظر : الفتح الربانى جـ ١ ص ٩٩ رقم ١٤٣) .

(٢) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٦ (ط . بهية) .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٦ كتاب فضائل القرآن : ٨ – باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) ابن الجزرى : النشر جـ ١ ص ٢٢ .

(٦) انظر : الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٣ .

وانظر ترجمة ابن مسعود فى :

النووى : تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٢٨٨ و ٢٨٩ .

وابن الأثير : أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٥٦ – ٢٦٠ .

ولكن ، لعلّ لعثمان عذراً فى هذا الشأن :

(ا) فقد جُمِع القرآن بالمدينة ، وعبد الله بن مسعود وقتئذ بالكوفة ، ولم يؤخّر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر[١] .

(ب) وأيضاً ، فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التى كانت جُمعت فى عهد أبى بكر ، وأن يجعلها مصحفاً واحداً ، وكان الذى نسخ ذلك فى عهد أبى بكر هو زيد بن ثابت ، لكونه كان كاتب الوحى ، فكانت له فى ذلك أوْلية ليست لغيره[٢] . وكما قيل : فهلاّ عبتَ على أبى بكر ؟[٣]

(حـ) وزيد شهد – بيقين – العرضة الأخيرة التى بيّن فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها لرسول الله ، وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات[٤] .

(د) وكان زيد معروفاً بكمال الدين ، وحسن السيرة ، والعدالة ، والعلم .

وَصَفَه النبى (ص) – فيما روى أحمد ، والنسائى من حديث أبى قلابة ، عن أنس – بأنه أعلم أصحابه بالفرائض[٥] .

وكان زيد بن ثابت – مثل ابن مسعود – من السّتّة الصّحابة أصحاب الفتوى ، وهم : عمر ، وعلىّ ، وابن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وأبو موسى ، وزيد بن ثابت[٦] .

ويقول سعد بن أبى وقاص فى شىء من القضاء : ما عرفناه حتى عَلَّمَنَاه زيد بن ثابت[٧] .

(هـ) وكان زيد يكتب ، للنبى (ص) ، إلى الملوك ، مع ما كان يكتبه من الوحى[٨]

وقد اختُصّه النبى بمهمٍّ خطير هو أن يتعلم لغة اليهود ، ليكتب – للنبى – إليهم ، وليقرأ

= وابن حجر العسقلانى : الإصابة جـ ٢ ص ٨٩٠ – ٨٩٣ .
وابن الجزرى : غاية النهاية ١٩١٤ .

(١) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٦ (ط البهية) .
(٢) نفس المرجع .
(٣) انظر : الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٣٤٩ .
(٤) انظر : السيوطى : الإتقان جـ ١ ص ٥٠ ، والزركشى : البرهان جـ ١ ص ٢٣٧ .
(٥) انظر : أبو الفدا الدمشقى : البداية والنهاية فى التاريخ جـ ٥ ص ٣٤٦ .
(٦) انظر : ابن حجر العسقلانى : الإصابة جـ ٣ ص ٢٣ .
وانظر : وكيع محمد بن خلف بن حيان : أخبار القضاة جـ ١ ص ١٠٥ .
(٧) وكيع محمد بن خلف بن حيان : المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٧ .
(٨) الثعالبى : لطائف المعارف ص ٤٠ .

له ما يكتبون [١] ، وهذا دليل ثقة النبي (ص) بفهم زيد وأمانته .

(و) وأعطاه النبي (ص) – يوم تبوك – راية بنى النجار ، وقال : القرآن مُقدَّم ، وزيدٌ أكثر أخذاً للقرآن [٢] .

(ز) وكان عمر يستخلفه إذا حجّ ؛ وكان معه حين قدم الشام [٣] .

(ح) وزيد هو الذى تولى قَسْم غنائم اليرموك ، واشترك فى واقعة اليمامة ، ورُمِىَ فيها بسهم لم يضرّه [٤] .

(ط) ولزيد عند الصحابة منزلته الكريمة كعالم :

روى الشَّعْبى : وضع زيد بن ثابت رِجْله فى الركَاب ليركب ، فأمسكه له ابن عباس ، فقال له : تنحّ يا بن عمّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : إنا هكذا نصنع بالعلماء أو قال : بأهل بيت نبينا [٥] .

وكان ابن عباس يقول عن زيد : إنه من الراسخين فى العلم [٦] . ولعل مما يزيد من قيمة هذا التكريم أن ابن عباس ، فوق كونه ابن عمّ النبى ، كان له من الشأن فى الإسلام ما جعله يُلقَّب بربّانى الأمة ، وقد دعا له النبى (ص) أن يفقّهه الله فى الدين ، ويعلّمه التأويل [٧] وقد كان ابن عباس هذا وأبو عبد الرحمن السّلمى ممن قرأوا على زيد [٨] .

(ى) ويفيد قول أبى بكر ، وهو يخاطب زيداً يوم طلب إليه الجمع الأول : « إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى » أن لزيد – كما يقول ابن حجر العسقلانى [٩] – أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك :

كونه شابا ، فيكون أنشط لما يطلب منه

---

(١) انظر : البخارى : الصحيح – باب ترجمة الحكام جـ ٦ ص ٩٤ .
وانظر : الحاكم النيسابورى : المستدرك جـ ١ ص ٢٧٥ .
والبلاذرى : فتوح البلدان – ١١١٥ القسم الثالث ص ٥٨٣ .

(٢) النووى : تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٢٠١ .
وانظر : وكيع محمد بن خلف بن حيان : أخبار القضاة جـ ١ ص ١٠٨ .

(٣) المرجعان السابقان .

(٤) المرجعان السابقان .

(٥) انظر : أبو حيان التوحيدى : البصائر والذخائر ، المجلد الأول ص ١١٢ .

(٦) انظر : الحداد خلف الحسينى : الكواكب الدرية ص ١٨ .

(٧) انظر : الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٧ و ٣٨

(٨) نفس المرجع ص ٢٩ .

(٩) فتح البارى جـ ٩ ص ١٠ (ط البهية) .

وكونه عاقلا ، فيكون أوعى له .

وكونه لا يتهم ، فتركن النفس إليه .

وكونه كان يكتب الوحى ، فيكون أكثر ممارسة له [١] .

وهذه الصفات التى اجتمعت له قد توجد فى غيره لكن مُفرَّقة .

(ك) ولئن كان النبى (ص) أثنى على ابن مسعود قارئ القرآن . كما أثنى على غيره . إن ذلك لا يمنع أن يكون زيدٌ أحفظ وأوثق .

وثمة روايتان جديرتان – لو صحّتا – أن تردّا ابْنَ مسعود عن مهمة الجمع :

يقول القرطبى : « فالشائع الذائع المتَعَالَم عند أهل الرواية والنقل : أنّ عبد الله بن مسعود تعلّم بقيّةَ القرآن ، بعد وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » ، ويقول : « وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن » [٢] .

٥

وأرسل عثمان إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف ، والمشهور أن هذه المصاحف خمسة . وقيل : أربعة . قال أبو عمرو الدانى فى « المقنع » : « أكثر العلماء على أنّ عثمان – رضى الله عنه – لما كتب المصاحف جَعَلَه على أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية من النواحى بواحدة منهن : فوجَّه إلى الكوفة إحداهن ، وإلى البصرة أخرى ، وإلى الشام الثالثة ، وأمسك عند نفسه واحدة . وقد قيل إنه جعله سبع نسخ ، وَوَجَّه من ذلك أيضاً نسخةً إلى مكة ، ونسخةً إلى اليمن ، ونسخة إلى البحرين . والأول أصحّ ، وعليه الأئمة »[٣]

وأمر عثمان بما سِوَى مصحفه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرَق ، وبعث إلى الأمصار أنّى قد صنعتُ كذا وكذا ، ومحوتُ ما عندى ، فامْحُوا ما عندكم [٤] . يقول ابن قيّم الجوزية – فى هذا التحريق – إنه « كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة »[٥] .

---

(١) لكثرة ما تعاطى زيد الكتابة للنبى (ص) ، أطلق عليه « الكاتب » بلام العهد .
(انظر : نفس المرجع جـ ٩ ص ١٨) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٥٣ .

(٣) النسخة المخطوطة بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة رقم ٢٦٣ قراءات ص ١٠ و ١١ ، والنسخة المطبوعة ص ٩ .

(٤) فتح البارى جـ ٩ ص ١٧ (ط . البهية) .

(٥) الطرق الحكمية ص ١٤ .

ورضى الناس هذا .

قال زيد بن ثابت : فرأيت أصحاب محمد يقولون : أحسن والله عثمان ! أحسن والله عثمان !(١) .

وروى ابن أبى داود ، بإسناد صحيح ، عن مصعب بن سعد بن أبى وقّاص قال : « أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمانُ المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، ولم ينكر عليه أحد(٢) . »

ويقول الذهبي فى عثمان بن عفان : « مَن نَظَر فى تحرّيه – وقت أمره بجمع القرآن – عَلِم مرتبته وجلالته(٣) . »

ويقول الزّركشى ، فى حديثه عن صنيع عثمان أيضاً : « ولقد وُفِّق لأمر عظيم ، ورفعَ الاختلاف ، وجَمَع الكلمة ، وأراحَ الأمة »(٤) .

وقد ردّ الزركشى أيضاً على اعتراض بعض الروافض على هذا العمل بقوله :

« وأما تعلّق الروافض بأنّ عثمان أحرق المصاحف فإنه جهلٌ منهم وعمًى ، فإن هذا من فضائله وعلمه ، فإنه أصْلَحَ ، ولَمَّ الشَّعَثَ ، وكان ذلك واجباً عليه »(٥) .

ويقول :

« وفى الجملة ، إنه إمام عدْل غير معاند ، ولاطاغ فى التنزيل ، ولم يحرق إلاّ ما يجب إحراقه ، ولهذا لم ينكر عليه أحد ذلك ، بل رضوه ، وعدّوه من مناقبه »(٦) .

وقد ألمعنا قبلا إلى تحبيذ علىّ لهذا الصنيع ، ونضيف أنه قال : « لو وَلِيتُ ما وَلِىَ عثمان لَعَمِلْتُ بالمصاحف ما عمل »(٧) . وفى رواية : « لو لم يصنعه هو لصنعتُه »(٨)

وقد نُقل عن ابن مسعود أنه قال : لما أُحرق مصحفه : « لو مَلَكْتُ كما مَلَكُوا لصنعتُ

---

(١) انظر : نظام الدين النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) المصاحف ص ١٢ .

(٣) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٩ .

(٤) البرهان جـ ١ ص ٣٤٠ .

(٥) نفس المرجع جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٦) نفس المرجع .

ويقول القرطبى : وقد قال القاضى أبو بكر لسان الأمّة : « جاز للإمام تحريق الصحف التى فيها القرآن إذا أدّاه الاجتهاد إلى ذلك » . (انظر : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٥٤ و ٥٥) .

(٧) انظر : الزركشى : البرهان جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٨) ابن أبى داود : المصاحف ص ١٢ .

بمصحفهم كما صنعوا » . والألوسى يرى هذا كذباً ، شأنه شأن ما زعمه الشيعة من سوء معاملة عثمان معه حين أخذ الصّحف منه[١] .

٦

وربما انضاف إلى مبررات رضى الناس عن تصّرف عثمان ، إذْ جَمعَ النّاسَ على مصحف واحد ،أن الضرورة الوقتية – التى كان القرآن قد نزل ، من أجلها ، على سبعة أحرف – كانت قد ارتفعت ، فارتفع حكمها ، ولهذا بيان أطول فى مواضع أخرى من هذا البحث . يقول الطحاوى ، فى شأن تلك الضرورة :

« فكانت هذه السبَّعة للناس ، فى هذه الحروف ، لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها مما لا يقدرون عليه . . . فكانوا على ذلك حتى كثر من يكتب منهم ، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقرأوا بذلك – على تحفّظ – القرآن ، بالألفاظ التى نزل بها ، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوه بخلافها ، وبان – بما ذكرنا – أن تلك السبّعة الأحرف إنما كانت فى وقت خاصّ ، لضرورة دَعَتْ إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يُقرأ به القرآن على حرف واحد »[٢] .

ومثل هذا رأى الباقلانى وأبى عمر بن عبد البرّ ، ومؤداه : أنّ القراءة بالسبعة الأحرف كانت رخصة فى أول الأمر ، ثم نسخت بزوال العذر ، وتيسّر الحفظ ، وكثرة الضبط ، وتعلّم الكتابة[٣] .

على أنّ ابن حزم يردّ على من يقولون بأن عثمان – إذْ كتب المصحف الذى أجمع النّاس عليه – أسقط ستة أحرف من الأحرف المنزلة ، واقتصر على حرف منها ، بأن قولهم باطل « ببرهان كالشمس ، وهو أن عثمان – رضى الله عنه – لم يك إلا وجزيرة العرب كلّها مملوءة بالمسلمين والمصاحف والمساجد ، والقرّاء يعلّمون الصِّبيان والنّساء ، وكلّ من دَبَّ وهَبَّ ، واليمن كلّها ، وهى فى أيامه مدن وقرى ، والبحرين كذلك ، وعمان كذلك ، وهى بلاد واسعة : مدنٌ وقرى ، وملكها عظيم ، ومكة ، والطائف ، والمدينة ، والشام ... كلّها كذلك ، والجزيرة

---

(١) روح المعانى جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) مشكل الآثار جـ ٤ ص ١٩٠ و ١٩١ .

(٣) انظر : ابن كثير الدمشق : فضائل القرآن ص ٣٧ .

كذلك ، ومصر كلّها كذلك ، والكوفة ، والبصرة كذلك ، فى كلّ هذه البلاد من المصاحف والقراء مالا يُحصِى عدَدهم إلا الله تعالى وحده ، فلو رام عثمانُ ما ذكروا ما قدَرَ على ذلك أصلاً »(١) .

ويردّ ابن حزم أيضاً على من يقولون إن عثمان جمع الناسَ على مُصحف ، فيقول : « وأما قولهم كذا فباطل ، ما كان يقدر على ذلك لما ذكرناه ، ولا ذهب عثمان قطّ إلى جمْع الناس على مصحف كَتَبَه ، إنما خَشِيَ – رضى الله عنه – أن يأتى فاسقٌ يسعى فى كيد الدين ، أو أن يَهِمَ واهم ، فيكونَ اختلاف يؤدِّى إلى الضلال ، فكتب مصاحفَ مُجْتَمَعاً عليها ، وبعث إلى كلّ أفق مصحفاً ، لكى – إن وَهِمَ وَاهِمٌ أو بَدَّلَ مبدّلٌ – رُجع إلى المصحف المجتَمَع عليه ، فانكشف الحقُّ ، وبَطَل الكيدُ والوهم ، فقط »(٢) .

ويقول ابن قيم الجوزية ، وهو يعرض سياسة الإسلام فى بعض النواحى :

« ومن ذلك جمع عثمان – رضى الله عنه – الناسَ على حرف واحد ، من الأحرف السبعة التى أطلق لهم رسولُ الله – صلى الله عليه وسلّم – القراءةَ بها ، لمّا كان ذلك مصلحة .

فلما خاف الصحابة – رضى الله عنهم – على الأمة أن يختلفوا فى القرآن ، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف فَعَلوا ذلك ، ومنعوا الناس من القراءة بغيره . وهذا كما لو كان للناس عدَّة طرق إلى البيت ، وكان سلوكهم فى تلك الطرق يوقعهم فى التفرّق والتشتّت ، ويُطْمِع فيهم العدوَّ ، فرأى الإمام جمْعَهم على طريق واحد ، وتَرْك بقية الطرق ، جاز ذلك ، ولم يكن فيه إبطال لها ، لكون تلك الطرق موصّلةً أيضاً إلى المقصود ، وإن كان فيه نهى عن سلوكها لمصلحة الأمة »(٣) .

ويصف طه حسين عمل عثمان هذا بأنّ فيه كثيراً من الجراءة ، ولكن فيه من النصح للمسلمين أكثر مما فيه من الجراءة (٤) ، ثم يقول : « فلو قد ترك عثمان الناس يقرءون القرآن قراءات مختلفة بلغات متباينة فى ألفاظها لكان هذا مصدر فُرقة لا شكّ فيها ، ولكان من المحقَّق أنّ هذه الفُرقة حوْل الألفاظ ستؤدّى إلى فُرقةٍ شرٍّ منها حول المعانى ، بعد أن كان الفتح ، وبعد أن استعرب الأعاجم ، وبعد أن أخذ الأعراب يقرءون القرآن »(٥) .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل جـ ٢ ص ٧٧ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الطرق الحكمية ص ٢٠ .

(٤) الفتنة الكبرى – عثمان ص ١٨٢ .

(٥) نفس الكتاب ص ١٨٣ .

٧

ويمكن أن يتّسق لنا – فيما يلى – منهج الجمع العثمانى :

١ – الاعتماد على عمل اللجنة الأولى التى تولّت الجمع على عهد أبى بكر ، أى على رَبْعة حفصة التى أشرنا إليها[١] ، والتى هى – كما يستفاد من منهج جمعها آنفاً – مستندة إلى الأصل المكتوب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم بأمره ، وبذلك ينسدّ باب القالة [٢] ، فلا يزعم زاعم أنّ فى الرَّبْعة شيئاً لم يكتب فى المصحف العثمانى ، أو أنه كُتِب فى هذا مما لم يكن فى تلك [٣] .

٢ – أن يتعاهد اللجنةَ خليفةُ المسلمين نفسه [٤] .

٣ – أن يأتى كلّ مَن عنده شىء من القرآن سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم بما عنده[٥]، وأن يشترك الجميع فى علم ما جُمِعَ ، على نحو ما اتبع فى الجمع البكرىّ ، فلا يغيب فى هذه المرة أيضاً عن جمع القرآن أحدٌ عنده منه شىء ، ولا يرتاب أحدٌ فيما يودَعُ المصحف ، ولا يُشَكُّ فى أنه جُمِع عن ملأ منهم[٦] .

٤ – إذا اختلفوا فى أيّة آية ، قالوا : هذه أقرأها رسولُ الله – صلى الله عليه وسلّم – فلاناً ، فيُرسَل إليه ، وهو على رأس ثلاث[٧] من المدينة ، فيقال له : كيف أقرأك رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا . . . فيكتبونها ، وقد تركوا لذلك مكاناً [٨] .

---

(١) فتح البارى حـ٩ ص ١٥، ط البهية)

(٢) انظر : لحداد خلف الحسيى : لكواكب الدرية ص ٢١

(٣) انظر : على سلطان القارى : شرح العقيلة – المخطوطة رقم ٢٣ قراءات بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، الورقة ١٤

(٤) انظر : السيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥٩

(٥) ابن أبى داود : المصاحف حـ١ ص ٢٤

(٦) الزركشى : البرهان حـ١ ص ٢٣٩

(٧) المقصود : ثلاث ليال . (انظر : القرطبى : الجامع لأحكام القرآن حـ١ ص ٥٤)

(٨) أبو عمرو الدانى : المقنع فى معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار – المخطوطة رقم ٢٦٣ قراءات ، بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ص ٨و٩ ، والنسخة المطبوعة ص ٧ ، والسيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥٩ .

٥ – يقتصر – عند الاختلاف – على لغة قريش[١] .

٦ – والمقصود من الجمع على لغة واحدة : الجمع على القراءة المتواترة المعلوم عند الجميع ثبوتها عن النبي صلى الله عليه وسلّم ، وإن اختلفت وجوهها ، حتى لا تكون فُرقة واختلاف ، فإنّ ما يَعلم الجميع أنّه قراءة ثابتة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – لا يختلفون فيها ، ولا يُنكر أحدٌ منهم ما يقرأه الآخر [٢] .

٧ – وعند كتابة لفظٍ تواتر – عن النبي صلى الله عليه وسلم – النطق به ، على أكثر من وجه ، تُبقي اللجنة هذا اللفظ خالياً من أية علامة تَقْصِر النُّطق به على وجه واحد ، « لتكون دلالة اللفظ الواحد على كلا اللفظين المتقولَيْن المسموعَيْن المتلوَّيْن شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولَيْن المفهومَيْن »[٣] .

٨ – وخشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعدُ ، يمنع كما مُنع فى الجمع البكرىّ عن كتابة ما يأتى ، فضلا عن قراءته وسماعه :

(ا) ما نُسخت تلاوته [٤] .

(ب) وما لم يكن فى العرضة الأخيرة [٥] .

(جـ) وما لم يثبت من القراءات ، وما كانت روايته آحادا [٦] .

(د) وما لم تُعْلم قرآنيته ، أو ماليس بقرآن ، كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصّة ، شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخ أو منسوخ أو نحو ذلك[٧] .

٩ – فيما خلا ما قد يختلف فيه أعضاء اللجنة ، وما تصدر تعليمات الخليفة المعبّرة عن رأى

---

(١) احتجّ عثمان فى هذا بأن القرآن نزل بلغة قريش ، وإن كان قد وُسِّع فى قراءته بلغة غيرهم ، رفعاً للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة (السيوطى : الإتقان حـ١ ص ٦٠) .

وقد اختلفوا فى كتابة كلمة « التابوت » فقال زيد : « التابوه » بالهاء ، وقال القرشيون : « التابوت » بالتاء المفتوحة ، لأنه كذلك فى لغة قريش (ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ ٩ ص ١٦ ط البهية) ، فرفعوا ذلك إلى عثمان ، فقال : اكتبوه : « التابوت » ، فإنما أنزل القرآن على لسان قريش (انظر : أبو عمرو الدانى : المقنع ص ٤ ط . دمشق)

(٢) انظر : محمد بخيت المطيعى : الكلمات الحسان ص ٢٨

(٣) ابن الجزرى : النشر حـ١ ص ٣٣ . وواضح أن الكتابة العربية كانت بطبيعتها خالية وقتئذ من النقط والشكل .

(٤) انظر : السيوطى : الإتقان حـ١ ص ٦٠

والزركشى : البرهان حـ١ ص ٢٣٥ و ٢٣٦

(٥) السيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥٩

(٦) نفس المرجع ص ٦٠

(٧) انظر : الزركشى : البرهان حـ١ ص ٢٣٥ و ٢٣٦

الصحابة صريحة بالاقتصار فيه على حرف قريش ، يشتمل الجمع على الأحرف التى نزل عليها القرآن ، والتى لم تغيّر فى العرضتين الأخيرتين ، وذلك على النحو الآتى :

(١) الكلمات التى اشتملت على أكثر من قراءة تجعل – حسبما أوضحنا آنفاً – خالية من أية علامات ضابطة تحدد طريقة واحدة للنطق بها ؛ وبذلك تكون هذه الكلمات محتملة لما اشتملت عليه من القراءات ، وتكتب برسم واحد فى جميع المصاحف ، مثل :

١ – « فَتَبَيَّنُوا »[١] التى رُوِيَتْ أيضاً « فَتَثَبَّتُوا »[٢]

٢ – « نُنْشِزُهَا »[٣] التى رويت « ننْشِرُهَا » و « نَنْشُرُها »[٤]

٣ – « هَيْتَ لَكَ »[٥] التى قرئت بسبع قراءات ، مع بقاء رسمها كما هو[٦] .

٤ – « أُفٍّ » [٧] التى قرئت بثلاث قراءات دون تغيير فى رسمها[٨] .

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ٦

(٢) هكذا يقرؤها حمزة ، والكسائى ، وخلف (ابن الجزرى : النشر ج٢ ص ٢٥١)

(٣) سورة البقرة / من الآية ٢٥٩

(٤) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « نُنْشِرُها » بضم النون الأولى ، وبالراء .
وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائىّ ، وخلف : « نُنْشِزُها » بالزّاى .
وروى أبان عن عاصم : « نَنْشُرها » ، بفتح النون الأولى وضمّ الشين والراء .
(انظر : ابن مجاهد : كتاب السبعة فى القراءات ص ١٨٩
وابن الجزرى : النشر فى القراءات العشر ج٢ ص ٢٣١
والدمياطى البنّا : إتحاف فضلاء البشر ص ١٦٢)

(٥) سورة يوسف / من الآية ٢٣

(٦) قرأ ابن كثير : « هَيْتُ لَكَ » ، بفتح الهاء ، وتسكين الياء ، وضمّ التاء .
وقرأ نافع ، وابن عامر ، وابنُ ذكوان (أحد الراويين الأشهرين لابن عامر) ، وأبو جعفر : « هِيتَ لَكَ » ، بكسر الهاء ، وتسكين الياء ، ونصْب التّاء .
وقرأ ابن عامر أيضاً : « هِئْتُ لَكَ » من تهيّأتُ لك ، بكسر الهاء ، وهمز الياء ، وضمّ التاء .
وعن هشام (وهو أيضاً أحد الراويين الأشهرين لابن عامر) : « هِئْتَ لك » ، بكسر الهاء ، وهمز الياء ، وفتح التاء
وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائى : « هَيْتَ لك » ، بفتح الهاء ، وسكون الياء ، وفتح التّاء .
(انظر : ابن مجاهد : كتاب السبعة ص ٣٤٧ .
وابن الجزرى : النشر ج ٢ ص ٢٩٣ و ٢٩٤ .
والدمياطى البنا : الإتحاف ص ٢٦٣ .

(٧) سورة الإسراء / من الآية ٢٣ ، وسورة الأنبياء / من الآية ٦٧ ، وسورة الأحقاف / من الآية ١٧ .

(٨) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب : « أُفَّ » ، بفتح الفاء .
وقرأ نافع ، وحفص ، وأبو جعفر : « أُفٌّ » بالتنوين .
وقرأ أبو عمرو ، وعاصم (فى رواية أبى بكر) ، وحمزة ، والكسائى : « أُفٍّ » خفضاً بغير تنوين .
(انظر : السبعة ص ٣٧٩ ، والنشر ج٢ ص ٣٠٦ ، والإتحاف ص ٢٨٣)

(ب) الكلمات التى تضمنت قراءتين أو أكثر ، والتى لم تُنسخ فى العرضة الأخيرة ، والتى لا يجعلها تجريدها من العلامات الضابطة محتملة لما ورد فيها من القراءات لا تكتب برسم واحد فى جميع المصاحف ، بل تُرسم فى بعض المصاحف برسم يدلّ على قراءة ، وفى بعضها برسم آخر يدلّ على القراءة الأخرى(١) .

وأهمّ الأمثلة على هذا :

١ – « وَقَالُواْ اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدا » (٢)، تُكتب فى أحد المصاحف (وهو الشامى) بغير واو (٣)

٢ « وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ » (٤) تُرسم ، فى بعض المصاحف ، بواوين قبل الصاد ، من غير ألف بين الواوين ، وفى بعضها ، بإثبات ألف بين الواوين(٥) .

٣ – « وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » (٦) ، تُرسم ، فى بعض المصاحف ، بواو قبل السين ، وفى بعضها ، بحذف الواو(٧) :

٤ « وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ »(٨)، بزيادة الباء فى الاسمين أى « وبِالزُّبُرِ وبِالْكِتَابِ »

---

(١) انظر : على محمد الضباع : سمير الطالبين – مبحث ما فيه قراءتان ، وورد برسمين على حسب كل منهما ص ١٠١ – ١٠٦

ويستبعد القلقشندى ، عند حديثه عن نقط المصاحف الذى كان أبو الأسود الدؤلى قد وضعه ، أن تكون حروف القرآن – قبل ذلك – مع تشابه صورها ، ظلت عريّة عن النقط إلى حين نقط المصحف (انظر : صبح الأعشى جـ٣ ص ١٥١) .

(٢) سورة البقرة / ١١٦ .

(٣) انظر : السبعة فى القراءات ص ٢٦٨ ؛ والنشر جـ١ ص ١١ ، والإتحاف ص ١٤٦ :

وعلى أساس ما ورد فى المصحف الشامى ، يقرأ ابن عامر « قالوا » بغير واو ، أما الباقون فيقرءون بالواو (الطبرسى : مجمع البيان فى تفسير القرآن جـ١ ص ٤٣٣)

(٤) سورة البقرة / ١٣٢

(٥) أبو عمرو الدانى : المقنع ص ١٠٢ فى النسخة المطبوعة .

ونتيجة هذا الاختلاف ، يقرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر : (أوصى) من الإيصاء ، والباقون يقرءون : (وصّى) بالتشديد . (انظر : نظام الدين النيسابورى : غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ١ ص ٤٤٨)

(٦) سورة آل عمران / ١٣٣

(٧) ونتيجة هذا الاختلاف ، يقرأ نافع ، وابن عامر : « سارعوا » ، بغير واو ، وكذلك هو فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام ، ويقرأ باقى السبعة « وَسَارِعُوا » بالواو. وكذلك هو فى مصاحف مكة والعراق .

(انظر : القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ٢٠٣ .

والفخر الرازى : التفسير الكبير جـ٩ ص ٤

والطبرسى : مجمع البيان جـ٤ ص ١٩٧

(٨) سورة آل عمران / ١٨٤

يثبت ذلك فى أحد المصاحف (وهو الشامى[١] .)

٥ – « جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ »[٢] ترسم بأحد المصاحف (وهو المكى) بزيادة « من » قبل « تحتها » ، وفى بقية المصاحف بحذفها[٣] .

٦ – « مِنْهَا مُنْقَلَباً »[٤] ، تُثبت فى بعض المصاحف بالتثنية[٥] .

٧ – « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ »[٦] ، تُثْبَتُ فى أحد المصاحف (وهو المكّى أيضاً) بحذف « هو »[٧] .

١٠ – فى شأن ترتيب آيات كل سورة يُلتزم ما كان النبى صلى الله عليه وسلم قد اتّبعه فى العَرْضَة الأخيرة ، فى السَّنَة التى تُوفى فيها ، ويعتبر هذا الترتيب توقيفاًمن الله[٨] .

وكذلك تلتزم اللجنة فى ترتيب السور ما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وما روعى فى جمع أبى بكر أيضاً .

١١ – بعد الفراغ من كتابة المصحف الإمام ، وقبل حمل الناس على كتابة لمصاحف على نمطه ، يراجعه زيد بن ثابت المرات المناسبة[٩] ، ثم يراجعه خليفة المسلمين بنفسه ، تأكيداً

---

(١) النشر حـ١ ص ١١

يقول الطبرسى : « . . . ويقرأ ابن عامر الشامىّ بالباء ، وكذلك هى فى مصاحف الشام ، والباقون بغير باء » (مجمع البيان حـ٤ ص ٢٨٧) .

(٢) سورة التوبة / ١٠٠

(٣) النشر حـ١ ص ١١

ولهذا ، قرأ ابن كثير بزيادة « من » ، وكذلك هو فى مصاحف مكة ، وقرأ الباقون بغير « من » ، وعليه سائر المصاحف (الطبرسى حـ١٠ ص ١٢٦)

(٤) سورة الكهف / من الآية ٣٦

(٥) النشر حـ١ ص ١١

وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » ، على التوحيد (القرطبى حـ١٠ ص ٤٠٤ ، والفخر الرازى : حـ٢١ ص ١٢٦)

(٦) سورة الحديد / من الآية ٢٤

(٧) النشر حـ١ ص ١١ .

ونتيجةً لهذا الاختلاف ، يقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، بحذف « هو » ، والباقون يقرؤنها . ومصاحف أهل المدينة والشام على الحذف . (انظر : الفخر الرازى : حـ٢٩ ص ٢٤٠ ، والقرطبى : حـ١٧ ص ٢٦٠)

(٨) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ٩ ص ٣٢ – ٣٦ (ط . النهية)

(٩) ذكر الطبرىّ أن زيد بن ثابت راجع المصحف ثلاث مرّات (جامع البيان جـ ١ ص ٦٠ و ٦١ ط . محمود محمد شاكر) :

فى الأولى ، لم يجد فيه هذه الآية : « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلاً » (سورة الأحزاب / ٢٣) . قال زيد : فاستعرضتُ المهاجرين أسألهم عنها ، فلم أجدْها عند أحد =

للأمان من أيّ نسيان(١) .

هذا هو منهج الجمع العثمانى فيما اتسق لنا ؛ ومن قبل أوضحنا – بطريقة مماثلة – منهج الجمع البكرى ؛ والحق أن المنهجين كليهما – بدقتهما ؛ وإخلاص القائمين عليهما ؛ وبما أديا من خدمة بالغة العظمة للقرآن – حقيقان بأن يكون منهما قدوة للتخطيط والعمل فى الجمع الصوتى الأوّل للقرآن : الجمع الذى يعتبر الثالث فى الترتيب التاريخى لمرات جمع هذا الكتاب العظيم .

فإلى مشروع هذا الجمع الأخير . . .

= منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها ، فلم أجدها عند أحد منهم، حتى وجدتُها عند خزيمة بن ثابت فكتبتُها (ابن أبى داود : المصاحف حـ ١ ص ١٩) وفى المراجعة الثانية ، لم يجد زيد هاتين الآيتين : « لَقَدْ جَاءَكُمْ سـ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عليكم . . . » إلى آخر السّورة (سورة التوبة / ١٢٨ و ١٢٩) . قال زيد أيضاً : فاستعرضتُ المهاجرين ، فلم أجدْها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضتُ الأنصار أسألهم عنها فلم أجدْها عند أحدٍ منهم ، حتى وجدتُها مع رجل آخر يُدْعى خزيمة أيضاً ، فأثبتُّها فى آخر (براءة) إلخ . . .

وفى المراجعة الثالثة ، لم يجد شيئاً .

* * *

والذى يتّضح لنا من الصحيح أنّ قصّة آيتى (التوبة) كانت عند الجمع البكرى ، وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن أنّ إثبات هاتين الآيتين فى المصحف لم يكن أبداً من رواية أبى خزيمة الأنصارى وحده .

أما قصّة آية الأحزاب التى أوردها الطبرى فلم تكن فى جمع أبى بكر ، وإنْ صَحَّتْ – وهو بعيد – فإنها تكون فى جمع عثمان . وواضح حتى من نصّها أنّ زيد بن ثابت كان يحفظ الآية الكريمة ، ولذلك سأل عنها المهاجرين ثم الأنصار ، حتى وجدها عند خزيمة بن ثابت ، فكتبها . فهكذا يقطع النصّ بأنّ الآية إنما أثبتت بشهادة اثنين – على الأقل – هما : خزيمة وزيد .

وقد قيل إنّ فقد زيد هذه الآية يستدعى – بظاهره – أنّ فى المصاحف العثمانية زيادة لم تكن فى مصحف أبى بكر . وقد صَدّق الألوسىّ المفسّر أنّ هذه القصّة صحيحة ، فقال مدافعاً : « والأمر – فى ذلك – هيّن ، إذْ مثل هذه الزيادة اليسيرة لا توجب مغايرةً يُعبأ بها . . » إلى أن قال : « ولو كان هناك غيرها لذكر ، وليس فليس . . . » .

وقال : « ولا يقدح أيضاً فى الجمع السّابق ، إذْ يحتمل أن يكون سقوطها منه من باب الغفلة ، وكثيراً ما يعترى السّارحين فى رياض حظائر قدس كلام ربّ العالمين ، فيذكّرهم سبحانه بما غفلوا ، فيتداركون ما أغفلوا . . . وزيد هذا كان فى الجمعين ، ولعلّه الفرد المعوّل عليه . . . لكن عراه فى أولهما ما عراه ، وفى ثانيتهما ، ذكّره من تكفّل بحفظ الذكر فتداركه ما نساه » (روح المعانى جـ ١ ص ٢٣) .

والحقّ أن هذه القصّة لا يمكن علمياً أن تثبت أصلاً . وقد ذهب ابن حجر العسقلانى إلى أنّ الطبرى إذْ أوردها (وهم) فيها ، وأنه « أدرج بعض الأسانيد على بعض » (فتح البارى حـ ٩ ص ١٢ ط . محبّ الدين الخطيب) . ومن ثَمّ فإننا نرفُض هذه القصة برُمّتها رفضاً .

(١) الطبرى : جامع البيان جـ ١ ص ٦١ (ط . محمود محمد شاكر) .

الباب الثانى

الجمع الصّوتى الأوّل
أو
المصحف المرتل

الفصل الأول

الفكرة

١

لفظ « المصحف »[1] اسم مجموعة صحائف القرآن مرتبّة الآيات والسّور على الوجه الذى تلقّته الأمة الإسلامية من النبي (ص) .

حكى المظفرى فى تاريخه ، قال :

لما جمع أبو بكر القرآن ، قال : سمّوه .

فقال بعضهم : سمّوه إنجيلا ، فكرهوه .

وقال بعضهم : سمّوه : السِّفْر ، فكرهوه من يهود .

فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف ، فسمّوْه به[2] .

وأخرج ابن أشته ، فى كتاب « المصاحف » ، من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب ، قال :

لما جمعوا القرآن ، فكتبوه فى الورق ، قال أبو بكر : التمسوا له اسماً ، فقال بعضهم : السّفْر ؛ وقال بعضهم : المصحف ، فإن الحبشة يسمّونه « المصحف » .

وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله ، وسماه « المصحف »[3] .

* * *

على أن هذا اللفظ ، وإن يكن – حسب هذه الرواية – معرَّبا عن الحبشية[4] ، كان

---

(١) المصحف بضم الميم وكسرها ، والأصل والأشهر هو الضم لأنه مأخوذ من (أصحف) ، أى جمعت فيه الصحف (انظر : ابن منظور : لسان العرب – مادة ص ح ف) .

(٢) انظر : السيوطى : الإتقان حـ١ ص ٥١

(٣) المرجع السابق

(٤) الكلمة الحبشية Mashaf . وهى – فى رأى بعض الباحثين – دخلت العربية مع اصطلاحات دينية أخرى مثل : (الحواريين) و (المنافق) و (المشكاة) وما إليها . ومما يستدل به على حبشية هذا اللفظ أنه ليس فى العربية

– منذ ما قبل الرواية – مما استعمل العرب . يقول امرؤ القيس فى إحدى قصائده :

أتت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان

بل لا يبعد أن يكون لفظ « المصحف » مما تداول المسلمون أنفسهم قبلا بنفس المعنى الذى قَصَدَتْه التسمية البكرية ، بل لعله الأقرب والأكثر قبولا :

فعن أبى هريرة أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : الغرباء فى الدنيا أربعة ، (وعدّ منها مصحفاً فى بيت لا يُقرأ فيه)[1] .

وروى ابن ماجة ، وغيره ، عن أنس – مرفوعاً – : سَبْعٌ يجرى للعبد أجرهُنَّ بعد موته وهو فى قبره (وعدّ منهم أيضاً من ورّث مصحفا)[2] .

وعن نافع ، عن ابن عمر ، قال : نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يسافر بالمصاحف إلى أرض العدوّ مخافة أن ينالوها ، وفى رواية : مخافة أن يُتَنَاول منه شىء ، وفى رواية أخرى : مخافة أن يناله العدوُّ [3] .

٢

وكما طلب أبو بكر اسما للجمع القرآنىّ المكتوب ، كان ضروريًّا أن يحتاج صاحب فكرة الجمع الصوتى إلى اسم لهذا الجمع . وكان طبيعيًّا جدًّا أنه آثر تسميته (المصحف) :

= فعل ثلاثى من مادة (صحف) يمكن أن تشتق منه كلمة (المصحف) ، بينما فى الحبشية يستعملون الفعل (صحف) بمعنى (كتب) .

(انظر : بول كراوس : بحث بعنوان (المصحف) بمجلة الثقافة ع ١١ مايو سنة ١٩٤٣) .

(١) انظر : المناوى : فيض القدير شرح الجامع الصغير حـ٤ ص ٤٠٩

(٢) انظر : ابن أبى داود : المصاحف حـ٥ ص ١٨٠ و١٨١

والسيوطى : الإتقان حـ٢ ص ١٧٣

(٣) انظر : ابن أبى داود : المصاحف جـ٥ ص ١٨٠ و١٨١

والسيوطى : الإتقان حـ٢ ص ١٧٣

وذكر السيوطى هذا الحديث فى « الجامع الصغير » ، ورمز له بالصحة . ولكن المناوى – فى « شرح الجامع الصغير المسمى بالتيسير » قال عن هذا الحديث إن إسناده ضعيف ، وإن المصنف وَهِمَ حيث رمز لصحته (حـ٢ ص ٥٢) .

وذكر المناوى أيضاً فى شرح حديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » إنه وَرَدَت – فى أحاديث أخر – زيادة على هذه الثلاثة تتبَّعَهَا ، فبلغت أحد عشر ، نظمها فى خمسة أبيات ، منها :

وراثة مصحف ، ورباط ثغر وحفراً لبئر أو إجراء نهـــر

نفس الاسم الذى ورد فى الأحاديث النبوية ، أو الذى اختاره المسلمون – على عهد الخليفة الأول ، لمجموعة القرآن المكتوبة المرتبة الآيات والسوَر ، على الوجه الذى تلقته الأمة من النبيّ (ص) ، مع زيادة الصفة الجوهرية التى تميزه عن المصحف المكتوب ، وهى أنه « المسموع » . وذكر صاحب الفكرة هذا الاسم فى كل ما أذاع ونشر عن فكرته فى مستهل عهدها .

* * *

وواضح أنّ هذه التّسمية مأخوذة مما ورد فى القرآن نفسه فى شأن سماع الوحى :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ »(١) .

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ »(٢)

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ »(٣)

« وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا »(٤) .

« وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى »(٥) .

« مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ »(٦) .

« إِن تَسْمَعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »(٧) .

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا »(٨) .

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ »(٩) .

« يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا »(١٠)

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ »(١١) .

« قَالُوا يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى »(١٢) .

« وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً »(١٣)

« وَإِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ »(١٤) .

---

(١) سورة البقرة / ٧٥
(٢) سورة المائدة / ٨٣
(٣) سورة الأنعام / ٢٥
(٤) سورة الأعراف / ٢٠٤
(٥) سورة طه / ١٣
(٦) سورة الأنبياء / ٢
(٧) سورة النمل / ٨١
(٨) سورة لقمان / ٧
(٩) سورة فصلت / ٢٦
(١٠) سورة الجاثية / ٨
(١١) سورة الأحقاف / ٢٩
(١٢) سورة الأحقاف / ٣٠
(١٣) سورة محمد / ١٦
(١٤) سورة القلم / ٥١

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً »(١)
« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِ »(٢)

* * *

ومنذ أوائل القرن الخامس الهجرىّ ، قال إمام الحرمين الجُوَيْنِيُّ (٤١٩ – ٤٧٨ هـ) :(٣)
« كلام الله تعالى مسموع فى إطلاق المسلمين ، والشّاهد لذلك – من كتاب الله تعالى – قوله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ »(٤) .

وقال عن لفظة « السَّماع » : فقد يُراد بها الإدراك ، وقد يُراد بها الفهمُ والإحاطة ، وقد يُراد بها الطاعةُ والانقياد ، وقد يُراد بها الإجابة(٥) .

وقال : فإذا سُمِّى كلامُ الله تعالى مسموعاً ، فالمعنىّ به كونه مفهوماً معلوماً عن أصوات مُدْرَكة ومسموعة . . إلخ (٦)

٣

على أنه بدا لنا ، بعد مَوْلد المشروع بقليل ، لسبب سنذكره تفصيلا فى الفصل التالى ، استبدال كلمة « المرتّل » بكلمة المسموع ، فَحَمَل مشروعُ الجمع الصوتىّ الأول منذ وقتئذ اسم « مشروع المصحف المرتل »(٧)

والمرتّل مأخوذ من (رَتَل) الثّغر ، فهو رَتِلٌ – من باب تَعِبَ – إذا استوى نباتُه وحَسُنَ تنضيده ، وكان مُفْلِجاً لا يركب بعضه على بعض . ويستعمل الترتل فى حسن تناسق الشىء . ومن المجاز : « رتّل القرآن ترتيلاً » إذا تَرسَّل فى تلاوته ، وأحسن تأليف حروفه ؛ وهو يترسّل فى كلامه ويترتّل (٨)

---

(١) سورة الجن / ١ (٢) سورة الجن / ١٣

(٣) أنظر كتابه : « الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد » بتحقيق محمد يوسف موسى ، وعلى عبد العظيم عبد الحميد .

(٤) سورة التوبة / ٦ – وانظر : الجوينى : المرجع السابق ص ١٣٣

(٥) الجوينى : نفس المرجع

(٦) نفس المرجع ص ١٣٤

(٧) بدى المرحوم الشيخ محمود شلتوت خوفه من أن يفهم بعض العامة كلمة « المسموع » بمعناها الغالب عندهم وهو المشهور .

(٨) انظر : الزمخشرى : أساس البلاغة : (ر ت ل) .
وفخر الدين الطريحى النجفى : مجمع البحرين فى غريبى القرآن والأحاديث ص ٤٣٦
ومجمع اللغة العربية بمصر : معجم ألفاظ القرآن الكريم حـ ١ ص ٤٣٥

والقرآن نفسه يقول :

« كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً » (١) .

« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً » (٢)

والترتيل – اصطلاحاً – هو القراءة بتؤدة واطمئنان ، وإخراج كلّ حرف من مخرجه ، مع إعطائه حقّه ومستحقّه ، ومع تدبّر المعانى .

وقيل : هو رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف .

وقيل أيضاً : هو خفض الصوت ، والتّحزين بالقراءة (٣) .

والترتيل – بهذا ، وبما هو الكيفية التى نزل بها القرآن « وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً » (٤) – هو أفضل مراتب القراءة الأربع : الترتيل ، ثم التحقيق الذى هو أكثر اطمئناناً ، والذى يُؤخذ به فى مقام التعليم ، لرياضة الألسن وتقويم الألفاظ ، ثم الحَدْر الذى هو الإسراع فى القراءة مع مراعاة الأحكام ، ويكون لتكثير الحسنات فى القراءة ، فيما يرى بعض المسلمين ، ثم التدوير الذى هو مرتبة متوسطة بين الترتيل والحدْر (٥) .

والنبى نفسه صلى الله عليه وسلم كانت قراءته ترتيلاً ، فقد كان – تنفيذاً لأمر ربّه – يقرأ القرآن « عَلَىٰ مُكْثٍ » (٦) ، أى على مَهَل ، وباطمئنان وتؤده ، ليتيسّر لسامعيه تلقّيه وفهمه

---

(١) سورة الفرقان / ٣٢

ومعنى « وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلا » : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضدّ العجلة ، وبيّناه ومكّناه . (أنظر : مجمع اللغة العربية بمصر : معجم ألفاظ القرآن الكريم حـ١ ص ٤٥٤)

(٢) سورة المزّمّل / ٤ .

قال ابن عباس فى تفسيره : « وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً » : بيّنه .

وقال مجاهد : تأنّ فيه .

وقال الضحاك : انبذه حرفاً حرفاً ، يقول الله تعالى : تثبّت فى قراءته ، وتمهّل فيها ، وافصل الحرف من الحرف الذى بعده (انظر : ابن الجزرى : النشر حـ ١ ص ٢٠٨) .

وعن علىّ : الترتيل : تجويد الحروف ، ومعرفة الوقوف (نفس المرجع ص ٢٠٩) .

(٣) انظر : على الجرجانى : التعريفات ص ٥٧

(٤) سورة الفرقان / ٣٢

(٥) الترتيل : مذهب ورش ، وعاصم ، وحمزة .

والحدْر : مذهب ابن كثير ، وأبى عمرو وقالون .

والتدوير : مذهب ابن عامر ، والكسائى .

(التهانوى : كشاف اصطلاحات العلوم والفنون حـ١ ص ١٩٦)

(٦) يقول تعالى : « وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً » (سورة الإسراء / ١٠٦) .

وتدبّره والانفعال به ، وكان صلوات الله عليه – فيما ذكر أبو داود والنّسائى من حديث أُبَيّ ابن كعب – يقطع قراءته ، ويقف عند كل آية ، فيقول : « الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ [١] » ، ويقف . « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »[٢] ويقف . وثابت أنه كان يرتّل السورة حتى تكون أطول منها ، وأنه قام بآية يردّدها حتى الصباح[٣] . وهو يحبّب فى الترتيل ، فيقول : يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتّلْ ، كما كنت تُرتّل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها[٤] .

يقول الشافعى : « أقلّ الترتيل : ترك العجلة فى القرآن عن الإبانة ، وكلما زاد على أقل الإبانة فى القرآن كان أحبّ إلىّ ، مالم يبلغ أن تكون الزيادة فيه تمطيطاً[٥] » .

ويقول الغزالى : « واعلم أن الترتيل مستحبّ لا لمجرد التّدبُّر ، فإنّ العجمىّ الذى لا يفهم معنى القرآن يُستحبّ له أيضاً فى القراءة الترتيل والتُؤدة ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام »

وحتى أرباب السّياسة ممن لم يرتفع لهم ذكر بين علماء القرآن كانوا يوصون بالترتيل فى القراءة :

فى الكتاب المشهور الذى وجّهه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر – لمّا ولّاه المأمون الرّقّة ومصر وما بينهما – وهو الكتاب الذى وصّاه فيه بكثير من الآداب والسياسة يحتاج إليها فى دولته وسلطانه ، يقول طاهر : « ورتّل فى قراءتك ، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهّدك . . . إلخ »[٧]

ويقول الوصّابى الحبشى المتوفى سنة ٧٨٢هـ : ويسنّ ترتيل القرآن ولو لمن لا يفهم[٨] .

* * *

وقد استهزئ بمشروع المصحف المرتل غداة الإعلان عنه ، وعُدّ بدعةً محدثةً لا يجرؤ عليها إلا عابث أو مأجور[٩] .

---

(١) سورة الفاتحة / ١ . (٢) سورة الفاتحة / ٢ .

(٣) انظر : شرح الزرقانى على المواهب اللّدنية للقسطلانى حـ١ ص ٣٢٥ و٣٢٦

(٤) انظر : القسطلانى : لطائف الإشارات حـ١ الورقة ٤ – المخطوطة رقم ٤٠٦ قراءات بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، والورقة ٥ من المخطوطة رقم ٤٩ قراءات بنفس الدار .

وانظر : البغوى الفراء : مصابيح السنّة حـ١ ص ١٠٣ .

(٥) انظر : كتاب أحكام القرآن للشافعى – جمعه البيهقى حـ١ ص ٦٤

(٦) انظر : ابن الجزرى : النشر حـ١ ص ٢٠٩

(٧) انظر : ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٠ (ط . التحرير)

(٨) انظر كتابه : البركة فى فضل السعى والحركة ص ١٦

(٩) نشرى صحيفة « الجمهورية » ، يوم ١٩٥٩/٣/١٤ ، ما مؤداه أن البحث عن طريقة جديدة للمحافظة –

والرَّدُّ أنَّ كتابة المصحف نفسها ، على نحو ما فصّلناه آنفا ، كان عملاً مستحدَثاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنَّ الصحابة – لِمُطلق المصلحة – فعلوه . وقد أصبحت هذه الكتابة المثل المختار لمن يؤكدون العمل بالمصلحة المرسلة :

يتكلم الشاطبي صاحب « الموافقات » و« الاعتصام » عن المصالح المرسلة ، « وهى التى يرجع معناها إلى اعتبار المناسب الذى لا يشهد له أصل معيّن » ، ويبسطها بأمثلة أوّلها : « أن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اتفقوا على جمْع المصحف ، وليس ثمَّ نصٌّ على جمعه وكتْبه أيضاً ،بل قد قال بعضهم : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم [١] – ؟ » ، ثم يقول الشاطبي فى هذا الشأن : « ولم يَرِدْ نصٌّ عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بما صنعوا من ذلك ، ولكنهم رأوه مصلحة تناسب تصرفات الشّرع قطعاً ، فإن ذلك راجع إلى حفظ الشريعة ، والأمرُ بحفظها معلوم ، وإلى منع الذريعة للاختلاف فى أصلها الذى هو القرآن ، وقد عُلِمَ النهى عن الاختلاف فى ذلك بما لا مزيد عليه »[٢]

وسيظل هذا الاجتهاد محل التفات المسلمين وإعجابهم[٣] .

٤

وقد رأى بعضهم فى سنة ١٩٦٤م ، – بباعث غير علمّى ولا جدّىّ – أن يطلق – على مجموعة « أسطوانات » القرآن – اسم « القرآن المرتّل » ، بدلا من « المصحف المرتل » .

ونودّ أن نُذكّر أصحاب هذا الرأى بأنّ المسلمين الأوّلين لمّا جمعوا القرآن كتابةً احتاجوا إلى اسم لهذا الجمع ، فكان أن اختاروا له اسم « المصحف » على نحو ما قدّمنا . وهم – بدهيًّا – لم يفُتْهم أنّ ما جمعوه هو القرآن ، ولو استَساغوا إطلاق اسم « القرآن » على الجسم المادىّ الذى سُجّل فيه القرآن لفعلوا ، ولكنهم لاحظوا – بالضرورة – أن القرآن هو « كلمات غيبيّة

= على القرآن تعنى أن المصاحف أصبحت « مودة » قديمة ، وأن الحفظ « مافيش حدّ يضمنه » .

وجاء بعد هذا ما نصه :

« ويقول الشيخ أبو زهرة : إن هذا عبث لا يجب أن يقول به أحد . إن الذين يقومون بهذه الدعوات ناس مأجورون ، فقراءة القرآن هى التى تجعل الإنسان يحسّ بروحانيته » .

(١) الاعتصام حـ٢ ص ٢٨٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٠

(٣) انظر مثلا : محمد الخضر الجكنى الشنقيطى مفتى المالكية بالمدينة المنورة : قمع أهل الزيغ والإلحاد عن الطعن فى تقليد أئمة الاجتهاد ص ٤٥

مجردة عن المواد »[١] ، وأنه كما يقول السَّنيون : « كلام الله تعالى غير مخلوق ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصّدور ، مقروء بالألسن ، مسموع بالآذان ، غير حالّ فى شىء منها »[٢] ، وكما يقول الألوسىّ : « فقولهم غير حالّ إشارة إلى مرتبته النفسية الأزلية ، فإنه من الشؤون الذاتية ، ولم تفارق الذات ولا تفارقها أبدا ، ولكن الله تعالى أظهر صورها فى الخيال والحسّ ، فصارت كلمات مخيّلة وملفوظة مسموعة ومكتوبة مرئيّة ، فظهر فى تلك المظاهر من غير حلول »[٣] .

وقد كان القسطلانى يعبّر - عن هذه العقيدة السّليمة الغالبة - بقوله : « القرآن غير مخلوق ، ولا حالّ فى المصاحف ولا فى القلوب والألسنة والآذان ، بل معنى قائم بذات الله . . . وهذا كما يقال : النار جوهر محرق ، يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتاً وحروفاً »[٤]

وأحمد بن حنبل يقول [٥] : إنّ الله أبطل أن يكون القرآنُ شيئاً غير الوحى ، لقوله : « إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى »[٦] . وقوله : « فَأَوْحى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى »[٧] .

والأشاعرة يرون ما لا يمكن أن يسمح للمسلمين أن يقبلوا إطلاق اسم « القرآن المرتل » على « الأسطوانات » آنفا :

فمؤدَّى كلام أبى الحسن الأشعرىّ أنه إن يكن القرآنُ كلامُ الله غيرَ معبَّر ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع ، فإنّ الحروف المقطعة فيه والألوان والأجسام والأصوات مخلوقة لا مخترعة[٨] .

والسُّبكى - فى تلخيصه لكلام الأشعرى والمسلمين غير المبتدعين عن القرآن - يقول : « ولا يجوز الانفصال - على القرآن - عن ذات الله ، ولا الحلول فى المحالّ ، وكون الكلام مكتوباً على الحقيقة فى الكتاب لا يقتضى حلوله فيه ، ولا انفصاله عن ذات المتكلّم »[٩]

---

(١) الألوسى : روح المعانى حـ ١ ص ١١

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع

(٤) لطائف الإشارات : الورقة ٥ من المخطوطة رقم ٤٩ قراءات بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(٥) انظر كتابه : « الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكُّوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله » ص ١٦

(٦) سورة النجم / ٤

(٧) سورة النجم / ١٠

(٨) انظر : ابن عساكر : تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ص ١٥٠

(٩) طبقات الشافعية حـ٣ ص ٤١٧ و٤١٨ (بتحقيق الطناحى والحلو)

والفخر الرازى يقرر أيضاً – فى شدّة – أنّ الأصوات التى نقرأ بها ليست كلام الله . يقول :

« زَعَمَت الحشوية أن هذه الأصوات التى نسمعها من هذا الإنسان عين كلام الله تعالى ، وهذا باطل ، لأنّا نعلم – بالبديهة – أن هذه الحروف والأصوات التى نسمعها من هذا الإنسان صفة قائمة بلسانه وأصواته ، فلو قلنا بأنها عين كلام الله تعالى لَزِمَنَا القول بأنّ الصفة الواحدة بعينها قائمة بذات الله تعالى ، وحالّةٌ بدنَ هذا الإنسان . وهذا معلوم الفساد بالضرورة .

وأيضاً ، فهذا عين ما يقوله النصارى من أن أقنوم الكلمة حلّت فى ناسوت صريح ، وزعموا أنها حالّةٌ فى ناسوت عيسى عليه السلام . ومع ذلك فهى صفة الله تعالى ، وغير زائلة عنه .

وهذا عين ما يقوله الحشوية من أن كلام الله تعالى حالٌّ فى لسان هذا الإنسان ، مع أنه غير زائل عن ذات الله تعالى ، ولا فرق بين القولين ، إلا أنّ النصارى قالوا بهذا القول فى حق عيسى وحده ، وهؤلاء الحمقى قالوا بهذا القول الخبيث فى حقّ كلّ الناس من الشّرق إلى الغرب[1] » .

وينفى أبو الحسين الخياط المعتزلى المعروف عن فرقته ما نُسب إليهم من أنهم قالوا إن الناس لم يسمعوا القرآن على الحقيقة ، وإنّ ما فى المصاحف ليس بكلام الله إلا على المجاز[2] .

وما انفكّ المسلمون – حتى عصرنا الحاضر وإلى ما شاء الله – يقصرون إطلاق اسم (القرآن) على كلماته الأزلية فحسب ، ومن ثمَّ ، فكلّ جسم وكلّ جِرْم مُبْعَدٌ تماماً عن هذا الاسم .

يقول صاحب (مناهل العرفان) ، وهو من المعاصرين :

« القرآن يطلق على الصفة القديمة ، ويطلق على الكلمات الحكمية الأزلية ، وهذان الإطلاقان لا تعدّد فيهما ألبتّة ، لا حقيقةً ولا اعتباراً . بل هما منزّهان عنه ، لأنّ التعدّد من أمارات الحدوث ، كيف وهما قديمان ؟ »[3] .

° ° °

وشىء اصطلح عليه الذين شاهدوا نزول القرآن ، ورأوه ضروريًّا ، وتبيّن صوابه للمسلمين

---

(١) الفخر الرازى : التفسير الكبير حـ١ ص ٣١ و٣٢

(٢) انظر : الانتصار والردّ على ابن الراوندى الملحد ص ٨٢

(٣) محمد عبد العظيم الزرقانى : مناهل العرفان فى علوم القرآن ص ١٤ (الطبعة الثانية)

جيلا بعد جيل ، ولم يختلف فيه عامّة فقهائهم وعلمائهم ، ووردت روايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، لماذا نعدل عنه ؟

ثم إنه لا ضير – ديناً وذوقاً – أن نقول فى شؤون « اسطوانات » المصحف : مشروع المصحف ، وبيع المصحف ، وشراء المصحف ، ومخزن المصحف ، وإيراد المصحف ، وسرقة المصحف ، والخطأ فى المصحف . . إلى آخر التعبيرات التى هى من لوازم المخلوقات والمحدثات ، بينما الواضح كل الوضوح أن استعمال كلمة « القرآن » فى هذه المجالات غير سديد ومجانف للدين والذوق . وكم يؤذى القرآن وأتباعه أن يُعْلَن عن المصحف المرتّل ، فيقال : إن « لجنة القرآن المرتّل » تعلن عن بيع كذا وكذا فى « مخازن القرآن المرتل ! »

والظن أن أصحاب هذا الاستعمال يجهلون أنه هو نفسه استعمال الطاعنين على القرآن ، والظانّين به ظن السَّوء ، فقد عثر أحد المستشرقين – كما هو موضّح فى موضع آخر من هذا الكتاب – على أوراق من مصاحف قديمة ، فنشرها بعنوان : أوراق من ثلاثة قرآنات ! ! قديمة .

وكتب ليفى بروفنسال بحثاً عن مصحف قديم ، فجعل عنوان بحثه : بيان عن قرآن من القرن الرابع عشر [1] ! !

ثم إنّ ذلك الاستعمال يجرّ قطعا إلى مشكلة طالما أثارت الفتنة ، وكانت لبعض أئمة المسلمين مصدر محنة ، وهى مشكلة : هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق

عن وكيع قال : من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أنه محدث ، ومن زعم أنه محدث فقد كفر[3] .

وإذا كانت القراءة نفسها التى هى عند المسلمين أصواتُ القراء ونغماتُهم ليست هى نفس كلام الله تعالى ، لأنها « هى التى تُستطاب من قارئ ، وتُستبشع من آخر ، وهى التى قد تكون ملحونة ، وقد تكون قويمة مستقيمة ، وهى الْجَهْوَرِية حينا والخفيّة حيناً آخر » [4] .

---

(١) انظر : نجيب العقيق : المستشرقون حـ ١ ص ٢٧٦

(٢) انظر : السخاوى : جمال القراء ص ٣٤ و٣٥ – المخطوطة رقم ٢٩ قراءات بدارالكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

والسبكى : طبقات الشافعية (بتحقيق الطناحى والحلو) حـ٣ ٤١٧ و٤١٨

(٣) أحمد بن حنبل : كتاب السنة حـ١ ص ٢٥٢

(٤) أنظر : الجوينى : المرجع السابق ص ١٣٠ و ١٣١

. . . إذا كان هذا من أصول الاعتقاد عند المسلمين ، أفلا تكون الأسطوانات المادية أوْلى بألا تسمىّ القرآن المرتل ؟ أليس الواجب أن ننزّه القرآن عن أن يكون متصلا بالأجسام وقائماً بالأجرام ؟

٥

وقد عرفنا من الباب الأول بواعث الجمعين الكتابيين ، فما هى بواعث التفكير فى الجمع الصوتى ؟

لعل أول هذه البواعث اقتضاء المحافظة على القرآن ، وذلك – فى رأينا – عن طريق :

(ا) تحقيق التلّقىّ الشفهىّ الذى لا محيص عنه لطالب القرآن ، والذى من غيره لا يُؤْمن التصحيف .

(ب) المحافظة على القراءات التى نزل بها القرآن ، وأجمع عليها المسلمون ، وثبت لهم – منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم – تواترها وعدم شذوذها .

(ح) المنع من القراءة بالشواذ التى تعلّق بها أفرادٌ من القرّاء ، والتى نرى – مع أغلب المسلمين – أنها الآن ، ومنذ جمع عثمان ، مجرّد وسيلة من وسائل تفسير القرآن ، وتبيين معانيه ، وترجيح تأويلاته ، والتى نرى أن التّلاوة بها تُفضى إلى الاختلاف والبلبلة والفتنة .

ومن هذه البواعث الحاجةُ الماسّة إلى تيسير تحفيظ القرآن وتعليمه ، وأحسب أن الجمع الصوتىّ الأول سدّ هذه الحاجة :

(ا) لأن المصاحف المرتلة نماذج صوتية ممتازة للترتيل الشّرعى الذى تستطيعه الكافة .

(ب) ولأنها تيسّر القرآن للحفظ والتعلّم ، وخاصّة فى المجتمعات الإسلامية غير العربية التى يُعْوِزُها غالباً المعلّم الضابط المتقن .

(ح) ولأنها تطبّ لمشكلة اختلاف الرسم العثمانىّ للمصحف المكتوب عن الرسم الإملائىّ المألوف .

وثمة بواعث أخرى دعتنا إلى الجمع الصوتى . . . هى ضرورة الذود عن القرآن ضدّ الطاعنين عليه ، والمتشككين فيه من قدامى ومحدثين ، وضدّ كلّ محاولة لتحريفه ، وكلّ

عقبة توضع أمام لغته ، أو أمام وحدة أتباعه .

وأظن أنّ مشروعى يحقّق أيضاً :

(ا) معاضدة المصحف العثمانى الذى أجمع المسلمون عليه .

(ب) درء أىّ تحريف عن القرآن .

(حـ) نشر لغة القرآن وتوطيد الوحدة بين المؤمنين به .

وفى الأبواب والفصول الآتية تفصيل هذا الإجمال ، مع ذكرٍ لمخطّطات المشروع .

الفصل الثانى

التنفيذ وتاريخياته

هنا الشبهة التى قد تُوهم أنى أشير إلى شخصى وعملى مزكيًا ، فإنّ الحديث عن مشروع الجمع الصوتى للقرآن برواياته المتواترة والمشهورة سيتضمن بالضرورة إشارات كثيرة أو قليلة إلى شخص صاحب المشروع وعمله . ولذلك كان طبعيًّا أنى لبثت سنين أوجب على نفسى التحرّج من هذا الحديث .

وقد نصح لى أصدقاء علماء بأن أكتب عن مشروعى : بواعثِه كما استشعرتها ، ومخطَّطاتِه كما وضعتُها ، وكيف سار تنفيذ المشروع إداريًّا وفنيًّا ، وماذا لاقى من ميسّرات ، وماذا عانى من معوِّقات . وأشهد أن نُصْح أصدقائى كان حافزاً قويًّا لى على الكتابة التى أنا بسبيلها ، بيد أنى لا أكذب الحقّ إذا قررت أنّ رأس الحوافز كان حرصى على أداء واجب تجلّت لى أهميته الكبرى ، وأخافنى إثم تركه .

نعم ، بدا لى أنّ حدثاً كهذا عظيمَ الشأن فى تاريخ القرآن ، فضلا عن التاريخ العام ، حرىٌّ جدًّا أن يستجْلىَ المسلمون كلَّ شىء عنه ، وبدا لى أن مسؤولية هذا تقع – أوّلَ ما تقع – على صاحب فكرة هذا الحَدَثِ التاريخى ، وهى مسؤولية تناقشه حسابها الأجيال إلى يوم القيامة ، لا سيما إذا كان هو وحده أقدر الناس على ذكر التفاصيل الصحيحة والدقيقة ، بحكم أنّ الفكرة عاشت فى خَلَده أمداً تتغذى من عقله وقلبه وضميره ، ثم بحكم أنه هو الذى بشّر بها ، وحمل أمانة الدعوة إليها ، والتخطيط لها ، ثم حمل طويلاً أمانة تنفيذها عاملاً ومُشْرِفاً .

ويضاف إلى هذا أنى أمّلت فى هذه الأجيال – إذا ما بسطت لها الأمر كاملاً أميناً – أن يتبيّنوا أشياء ربما أعانتهم على إكمال بناء أو إتمام خطة ، وأخذ أسلوب فى العمل أو ردّ أسلوب .

وقد رأى القارئ أن الطريق إلى معرفة الحقائق المفصّلة عن الجمعين الكتابيين لم يكن كلّه سهلا ، ولا تثريب فى هذا على معاصرى هذين الجمعين ، فإنّ زمنهم نفسه كان شحيحاً

عليهم بإمكانيات التسجيل المفصل للتاريخ ، أما الأجيال القادمة التى ستدرس مشروع الجمع الصوتى الأول للقرآن برواياته المتواترة والمشهورة ، هذه الأجيال التى ستعرف ما وفّرته لنا أيامنا من وسائل ومعارف . . . ستكون فى حلٍّ من أن تُنْحى علينا باللّائمة إذا بخسناها حقها فى الوقوف على كلّ شيء .

وقد جرت على أعين الناس – فى شأن مشروع المصحف المرتل بالذات – عجائب جريئة ، وصاحب المشروع حيّ يروح بين الناس ويغدو : يدعو لفكرته ، وينافح عنها ، ويخطّط لها ، ويتولاّها بالتنفيذ والمراجعة ، فكيف ستكون الحال فى يوم قريب أو بعيد ؟ ألا فلتعرف أجيال المسلمين الحقائق عن هذا المشروع فى غير تلوين أو تزييف . وليس على صاحب المشروع جُناح أو بأسٌ أن يُشار قليلا أو كثيراً إلى شخصه وعمله المتواضعَيْن ، ما دام لا يبغى غير وجه الحق والعلم .

على أننا لن نتوسّع فى بيان أشياء يحتمل أن تقطعنا عما نقصد إليه ، وسنجتزئ من ذلك بالإلماع دون الإفاضة والإسهاب .

ورجائى أن أتعلّق بأسباب الله وحده ، لعلّه أن يهدينى المحجّة المستقيمة .

٢

وأعود إلى ما قبل إعلانى عن مشروع المصحف المرتل ببضع سنين لا أستطيع تحديدها بدقة .

منذ يومئذ وأنا أحسّ أن جمع القرآن جمعاً صوتيًّا بكل قراءاته المتواترة والمشهورة أمر يجب أن ينهض به أهل هذا الزمان .

وكنت أتابع ، فى المقارئ الكبيرة بالقاهرة ، الممتازين من علماء القراءات ، وكان يؤلمنى أنه كان إذا مات منهم أستاذ حاذق خَلَفَه أحياناً من لا يعدله أستاذية وحذقاً ، وضاعت على المسلمين – إلى الأبد – مواهب الميّت لأنها لم تُسَجَّل .

ما كان أعظم شعورى بالخسارة الفادحة المستمرة على مدى الزمن فى القراء الذين يموتون ! ذلك أن إنتاجهم – بطبيعته – غير إنتاج غيرهم من أصحاب العلوم والفنون ، فهؤلاء يستطيع

الواحد منهم – بفضل الكتابة – أن يواصل – بعد موته – الحياة فى إنتاجه ، أما أصحاب التراث الصوتى ، وفى مقدمتهم القراء ، فكان تراثهم يفنى بفنائهم ، لأن العلم لم يكن اهتدى بعدُ إلى طرائق تسجيل هذا التراث . وحتى بعد الاهتداء ، تأخر تسجيل المصحف أمداً غير قصير

كان هذا الشعور ، ومعه شعور قوىّ آخر بمدى الحاجة إلى تحقيق كل الأغراض التى سنعقد لها هنا فصولا طويلة ، وهى أغراض خطيرة الشأن ، كان ذلك كله مبعث أمشاج من الافكار سُوِّيتْ ، فيما بعد ، فكانت فكرةَ جمع القرآن صوتيًّا بكل رواياته المتواترة والمشهورة وغير الشاذة .

٣

ولا أكتم أنى كنت أعلم أن مشروع الجمع القرآنى الذى أنشده هو سيرٌ فى الطريق التى نهجها – قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن – الخليفة الأول أبو بكر بمشورة عمر ، ونهجها بعده عثمان بن عفان ، بمشورة الصحابى حذيفة بن اليمان ، فكنت أستهْول جراءتى على الطموح إلى محاولة تقليدهما فى أمر القرآن ، وكان الحياءُ الشديد أحياناً ينهرنى ، وكانت جلالة المشروع تبهرنى . ولكنى – مع ذلك ، ومع ضعفى وتخلّفى وسوء حالى – مضيت أرسم لمشروعى أحسن ما قدرت عليه من منهج .

وكنت أحدّث بالفكرة بعض أقربائى واصدقائى ، وبعض زملائى فى الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم التى كنت أحد المسؤولين فيها ، ثم كنت رئيساً لها ، فكنت أجد من بعض مَنْ أُحدِّثهم تقديراً واستبشاراً .

٤

وتقدمت فى أواخر فبراير ، أو أوائل مارس ١٩٥٩ إلى مجلس إدارة الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم باقتراح أسجله هنا بنصّه :

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتراح مقدم إلى مجلس إدارة الجمعية من رئيسها
لبيب السعيد

بشأن تسجيل القرآن الكريم صوتيًّا بكل رواياته المتواترة والمشهورة وغير الشاذة

« يمكن الآن أن يتجاوز المسلمون التسجيل الكتابي للقرآن الكريم إلى تسجيله صوتيًّا ، فيصبح لديهم التسجيلان كلاهما . وقديماً تطور تسجيل الكتاب العزيز من الكتابة على العِظام واللِّخَاف وعَسِيبِ النخل إلى تسطيره على الجلد والقماش ثم الأوراق بأنواعها . وكما تطورت طريقة كتابة المصحف بأن أضيف إليه النَّقْط والتشكيل والضوابط والمحسنات الخطية تطورت أيضاً طريقة التسجيل مع الكتابة باليد إلى الطباعة .

على أن أهم وسيلة لنقل القرآن الكريم عَبْر الدهور كانت وما زالت روايته وتلقينه مباشرة وشفاهاً ، فَماً لفَمٍ ، وهذا هو المعتمد عند علماء القرآن ، لأنّ فى القراءة مالا يمكن إحكامه إلا عن طريق السماع والمشافهة .

ومتابعةً للتطور ، وتأكيداً لطريقة النقل الشفوى ، وتطويراً لها ، يمكن الآن الاتجاه إلى تسجيل القرآن الكريم تسجيلاً صوتيًّا . ولعلّ هذا الأسلوب أن يكون هو أصلح أساليب العصر وأكثرها تيسيراً على المسلمين فى تلقّى الكتاب العزيز مجوّداً ومتْلُوًّا بمختلف القراءات .

* * *

ومعلوم أن لدى دور الإذاعة تسجيلات من آى الذكر الحكيم من ترتيل بعض القارئين ، ولكن التسجيلات التى نريدها هى من طراز آخر ، فالتطريب ليس من أغراضها ، وإنما التعليم هو غرضها الأول . ومفهوم أن الفرد العادىّ لا يستطيع ، ولا يجب عليه ، فى حياته العملية ، أن يقرأ القرآن بالطريقة التلحينية التى يذيعه بها الآن القراء ، فى دور الإذاعة ، وفى المحافل .

والملاحظ الآن أن كثيراً من المسلمين لا يُحسنون – مع الأسف – أداء الكتاب العظيم حسب أصول التجويد ، مع أنهم بالضرورة يؤمنون بهذا الكتاب ، ويحبّونه ، ويستهدونه .

والملاحظ أيضاً أن أغلب حفاظ القرآن الكريم لا يعرفون غير قراءة « حفص » ؛ وهذا وذاك أمران بالغا الخطورة ، ويتعين تلقاءهما على الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم – وهى التى تعمل ليظل ميراث القرآن محفوظاً أحسن حفظ على مدى الزمن – أن تطبَ لهذه الحال عاجلا . وربما كان مشروع تسجيل القرآن صوتيًّا من كبار علماء القرآن هو السبيل العملية السهلة إلى العلاج المنشود .

ولست هنا بصدد التنويه بفضل القرآن الكريم على العاملين ، ولا الإشارة إلى ما يُرْجَى من وراء تعلّمه واتباعه وتلاوته حق التلاوة من خير يعم البشرية ، ويهيئ للمسلمين والعرب الإمامة فى الأرض ، فهذا كله أوضح من أن يوضح . ولكن الذى أشير إليه هو أن المسلمين – فى مختلف البقاع – يتلهفون على وسيلة ميسورة يتعلمون عن طريقها كتابهم الأقدس ، ويتلونه على نَسقها تلاوة صحيحة يقوى عليها الفرد العادىّ . ولا ريب أن الحاجة إلى هذه الوسيلة – بالنسبة للدول الإسلامية غير العربية أمَسّ ، وأن انتشار القرآن بفضل هذه الوسيلة سيكون أوسع ، وطلابه سيكونون أكثر ، وأن المصحف المسموع سيكون سبباً خطيراً لزيادة توثيق العلاقات بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ... ...

... ...

* * *

ولقد عُنِيتْ الهيئات الثقافية فى الإقليم المصرى بتسجيل الأغانى ، ولذلك ليس غريباً أن نسمع فِتْيانَنا وفَتَياتِنا يُكثرون تَرْديدها ، مع ما فى عباراتها – أحياناً – من معان غير باعثة ولا نظيفة . ولا ريب أن كلام الله المكنون أحق بهذه العناية ، وبما هو أكثر منها .

وهذه الجمعية ، بحكم رسالتها وتخصصها وإمكانياتها القرآنية ، هى أوْلى الهيئات بالقيام على مشروع التسجيل ، على أن لا تحرم الهيئات الأخرى القادرة على المعاونة من شرفِ الإسهام فى هذا المشروع البالغ الجلالة .

* * *

وفيما يختص بالتسجيل نفسه ، أقترح أن يشمل تلاوة الكتاب العزيز كله بقراءة حفص ، ثم بمختلف القراءات المتواترة والمشهورة وغير الشاذة ، على أن لا تُرَدَّدَ الآية الواحدة بأكثر من قراءة واحدة فى التلاوة الواحدة ؛ كما يشمل التسجيل دروساً عملية فى أحكام التجويد بطريقة سهلة ميسرة تمكن الجمهور العادى من الانتفاع بها .

أما فيما يختص بمن يتولّون القراءة والتدريس العملى ، فيجب أن يكونوا من أعلم علماء

القرآن ، مع مناسبة أصواتهم للتسجيل ، وأن تختارهم لجان لها خبرتها القرآنية العظمى ، ويشارك فيها الأزهر الشريف والهيئات العلمية واللغوية والثقافية الأخرى .

وأقترح تشكيل لجنة من أعضاء الجمعية تضم إليها من تشاء ممَّنْ يُرْجى نفعُه لأعمالها ، وتضع هذه اللجنة منهاجاً كاملا مفصَّلا لتنفيذ المشروع سواء من الناحية القرآنية ، أو ناحية التسجيل الفنى ، أو من الناحيتين التمويلية والإدارية ، كما تحدد المعاونات الممكن الحصول عليها من الجهات الحكومية والشعبية المختلفة . وكذلك تتولى اللجنة ترشيح أعضاء اللجان التى يعهد إليها باختيار علماء القرآن الكريم ممن سيناط بهم التسجيل . . . . . إلخ .

* * *

وقررت الجمعية المبادرة إلى تنفيذ اقتراحى ، على أن تتصل فوراً بالجهات الحكومية التى أشار إليها المشروع من أجْلِ الأغراض المفصَّلة فيه ، وأُلِّفت لذلك لجنة برياستى .

ودعوت إلى اجتماع عامٍّ بمقر الجمعية (شارع الشيخ ريحان – عطفة زاوية أبى الوفا رقم ٥ بعابدين) ، فى مساء ١٤ من رمضان ١٣٧٨ (٢٣ من مارس ١٩٥٩) ، وكان ضمن الحاضرين مندوب عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى(١) ، وممثل لهيئة الإذاعة (٢) ، ومندوب عن الإدارة العامة للمعاهد الدينية بالأزهر (٣) ؛ ومندوب عن الإدارة العامة للثقافة بالأزهر أيضاً(٤) .

* * *

وفى هذا الاجتماع ، ذكر أحد الحاضرين(٥) أن شيخ الأزهر كلفه إبلاغنا خَشْيَتَه من أن يقع للقراءة المقترحة للتسجيل ، وهى غير المنغمة ؛ ما وقع للأذان الخالى من التطريب ، حيث اختلف الناس فيه : فريق يؤيده ، وفريق لا يرضاه بديلا بالطريقة التطريبية ، وأثبت المتكلم كتابةً نصّها : « وإن الأستاذ الأكبر طلب أن يظلَّ القرآن بجلاله ، فلا تكثر الاقتراحات حوله » .

أما مندوب وزارة الثقافة والإرشاد القومى فكتب أنه كبير الأمل فى أنّ وزارته ستولى المشروع رعايتها بعد أن يقرّه الأزهر .

وأما كبير المهندسين بالإذاعة فاقترح – كتابةً – لتمويل المشروع إحدى طريقتين : (الأولى) : تكوين شركة مساهمة للتنفيذ .

---

(١) هو الأستاذ عبده بدوى (٢) هو كبير مهندسى الإذاعة وقتئذ المهندس طه نصر

(٣) هو الأستاذ الشيخ على جعفر (٤) هو الأستاذ عبد الرحمن العدوى .

(٥) وهو المرحوم الأستاذ الشيخ حسن مصطفى وهدان ، وكان عضواً بالجمعية وقتئذ .

(والثانية) : ترك التنفيذ لإحدى الشركات التجارية تلقاء ربح تستفيد به الجمعية التى يرأسها صاحب المشروع .

واقترح من الناحية الفنّية أن يكون الامتياز فى صوت القارئ المسجّل مقدّماً على باقى الشروط بما فيها جودة الحفظ ودقة الأداء ، لأن هذين – فيما يرى – يمكن تعهدهما بالتوجيه من جانب المتخصصين .

وأيد مندوب المعاهد الدينية بالأزهر المشروع بالشرط الوارد فيه ، وهو أن يكون القرّاء والمدرسون من أعلم علماء القرآن ، وتختارهم لجان لها خبرتها القرآنية العظمى . . إلخ .

وأما مندوب الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر ، فأيّد فكرة البدء بتسجيل رواية حفص ، وطلب – فيما يختصّ بتسجيل دروس التجويد المقترحة – الإكثار – عند تعليم الأداء – من الأمثلة المنطوقة .

* * *

وعقدتُ مؤتمراً صحفيًّا فى صبيحة اليوم التّالى ، ورجوت ممثلى الصحف دعوة رجال الفكر إلى موافاتى بتوجيهاتهم وملاحظاتهم ، حتى يتحقق لفكرة المصحف المسموع ما هى كفاؤه من تنفيذ دقيق سليم . وتحدثتُ إليهم عن بعض تفاصيل المشروع ، وكتبَتْ الصُّحف بَعدها عن المشروع منوّهةً مشجعةً ، ولكن محرراً فى إحداها ، وهى « الجمهورية » عرّض بالمشروع ، وذكر أنه سأَلَ أحد أساتذة الشريعة بكليّة الحقوق[1] رأيه فى الفكرة ، فقال إنها عبث لا يفعله إلا عابث أو مأجور . واتصلت بأستاذ الشريعة شارحاً ، فاعتذر بأنه إنما قال الذى قاله لأنّه كان يظن المشروع يرمى إلى تلحين القرآن .

وأبلغنى زميلٌ فى الجمعية[2] أن شيخ الأزهر يعترض أيضاً على اسم المشروع ، ويقول إن العامة تجعل « المسموع مرادفاً لِـ « المشهور » ، ولذلك يرى تغيير الاسم .

وفكرت فى التغيير ، ووردت على خاطرى هذه الصفات : المرتل – الناطق – الصائت – فاخترت أوّلها .

وقصدتُ ، ومعى بعض أصدقائى[3] ، إلى شيخ الأزهر فى بيته ، وكان قد أبلّ من مرض شديد ، وتحدثتُ إليه فى شأن المشروع والتخطيط له ، وأبلغته أنى اخترت كلمة

---

(١) هو المرحوم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره

(٢) هو أيضاً المرحوم الأستاذ الشيخ حسن مصطفى وهدان ، وكان وقتها دائم الاتصال بشيخ الأزهر

(٣) أذكر منهم المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد أحمد على الأستاذ بكلية اصول الدين

« المرتل » بدل « المسموع » ، فتلقى الشيخ مشروعى بالرضى الأتمّ ، وأصدر بياناً نشرته كافة الصحف فى ٣ و ٥ أبريل ١٩٥٩ ، ونشرته مجلة الأزهر فى أول عدد صدر منها بعد هذا التاريخ[١] .

* * *

وأردت أن يأنس الرأى العام إلى التلاوة المرسلة التى سيسجَّل بها الجمع الصوتى ، فطلبتُ إلى الشيخ محمود الحصرى أن يقرأ بها فى حفل الجمعية الذى أقيم بقاعة المحاضرات الكبرى بالأزهر يوم ٤ يونية ١٩٥٩ ، فلاقت هذه التلاوة – من أغلب الحاضرين – استحساناً ، وقرروا أنها تصرفهم إلى تتبّع آيات القرآن نفسها دون تتبّع النغم .

٦

وفاوضت مصنع الشرق للأسطوانات فى شأن التنفيذ[٢] ، وطالت المفاوضات حتى انتهت إلى « مشروع عقد » بعث به المصنع إلىّ فى ١٩٥٩/٩/٥ .

وعجزت عن تدبير « استوديو » للتسجيل فيه بالمجان ، فرغبتُ إلى نائب وزير الدولة لشئون رياسة الجمهورية[٣] ، وإلى المدير العام للإذاعة أن يأذنا لى بالتسجيل فى استوديوهات الإذاعة ، وسعيت فى ذلك سعياً ، حتى استُجيب لطلبى ، بشرطٍ أصرّت عليه الإذاعة ، وهو أن يكون لها الحق المطلق فى أن تذيع من « محطاتها » ما يتم تسجيله لديها ، ولعلّ سرورى بهذا الشرط وأنا أقدّم به إقراراً كتابيًّا كان أكبر كثيراً من سرور الإذاعة .

---

(١) ع شوال ١٣٧٨ (إبريل ١٩٥٩) . وهذا نص البيان .

المصحف المرتل

قدم السيد الأستاذ لبيب السعيد رئيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم اقتراحاً إلى فضيلة الأستاذ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بتلخّص فى أن يسجل القرآن الكريم تسجيلاً صوتياً مجوّداً ، وذلك لتمكين المسلم العادىّ من تلاوة آى الذكر الحكيم تلاوة مجوّدة فى سهولة ويسر . ومعنى الترتيل المرسل : القراءة على نحو ما يكون فى الصلاة .

وقد أبدى فضيلة الأستاذ الأكبر ارتياحه ورضاه عن هذه الفكرة ، لأنها طريقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والصحابة من بعده .

(٢) وأعانى فى هذه المفاوضة ، وزوّدنى بالمعلومات الهندسية السّيدان : المرحوم المهندس عز الدين فؤاد ، والمهندس طه نصر .

(٣) السيد القائمقام محمد عبد القادر حاتم (فيما بعد : الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الإعلام .)

ودعوت جهات كثيرة إلى تمويل المشروع ، عن طريق تلك الجمعية ، فلم تتلقّ – فيما أذكر – غير مبالغ قليلة جداً ابتلعتْها بنودٌ أخرى فى ميزانيتها المتواضعة ، كانت شديدة العطش .

ودعوت مع ذلك إلى التسجيل ثلاثةً من أشهر القراء والعلماء[١] ، فبدأوا فعلا عملهم فى استوديوهات الإذاعة .

غير أن العجز عن تمويل المشروع كان يجعل العمل بطىء الخُطَى ، وبدا أن لا مناص من تكرار التماس العون المالى من كل مقتدر ، بيد أنى – لطبيعة خاصّة فىّ – أعوزتنى القدرة على هذا الالتماس . ولست أنسى يوماً من أيام رجب سنة ١٣٧٩ (يناير ١٩٦٠) سعيت فيه ، بناء على نصيحة أحد المخلصين للمشروع [٢] ، إلى ثرى كبير كان وقتئذ وزيراً فى إحدى الدول العربية ، وكان يقيم فى مصر فى حىّ الدقى ، فتلقّى هذا الثَّرى حديثى عن المشروع بعدم الاكتراث ، وخرجتُ يومها من لدنه خجلان آسفاً نادماً .

٧

وحفزنى الإخفاق فى تمويل المشروع إلى التفكير فى وضعه تحت الرعاية المالية للدولة نفسها .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ من فبراير ١٩٦٠ ، قابلت وزير الأوقاف [٣] ، ورجوته مساعدة المشروع ماليًّا ، فاستجاب فوراً وفى حماسة ، وكانت استجابته مبعث طمأنينة واستبشار وأمل . وأصبح العمل شغل الوزير نفسه ومحلّ اهتمامه ، فأفاد ذلك كثيراً .

* * *

واقترحت على الوزير ، فى ٣ مارس سنة ١٩٦٠ ، تشكيل لجنة عامة للإشراف على

---

(١) هم : الشيخ محمود الحصرى ، وكان وقتئذ وكيل مشيخة المقارئ بوزارة الأوقاف ، واتُّفق على أن يسجّل القرآن برواية حفص عن عاصم ، والمرحوم الشيخ مصطفى المللوانى ، وكان شيخ مقرأة بوزارة الأوقاف ، وكان حاذقاً فى القراءات ، واتُّفق على أن يسجّل رواية خلف عن حمزة ، والشيخ عبد الفتاح القاضى ، من علماء الأزهر ، ورئيس لجنة مراجعة المصاحف ، واتُّفق على أن يسجّل برواية ابن وردان عن أبى جعفر ، مع الإشراف الفنىّ على التَّسجيل .

(٢) وهو صديقى المرحوم المهندس عز الدين فؤاد ، أجزل الله ثوابه .

(٣) كان وقتئذ هو السيد أحمد عبد الله طعيمه .

تنفيذ المشروع ، فأخذ باقتراحى[١] .

ورغبت إليه فى توقيع خطاب لوزير الاقتصاد[٢] ، للسماح بتحويل ثمن الأشرطة والخامات اللازمة للمشروع إلى الخارج ، مع إعفائها من العلاوات والرسوم النقدية التى كانت مقررة وقتئذ ، فاستجاب الوزيران لرغبتى .

واتُّخِذت – عن طريق وزيرى الخزانة والأوقاف – إجراءات استصدار قرار جمهورى بإعفاء مستلزمات المشروع من كلّ الرسوم الجمركية .

وعدت إلى مفاوضة مصنع الشرق للأسطوانات ، على أساس تخفيض التكاليف بما يناسب المزايا الجديدة التى ستصبح للعقد بعد أن يصير حكوميًّا ، واشترك معى فى المفاوضات الجديدة – بناء على طلبى – الفنيون الرسميون فى دار الإذاعة ، وفى وزارة الصناعة .

وكان لا بدّ من موافقة مجلس الدولة ، ووزارة الخزانة ، وديوان المحاسبات على العقد الجديد ، فأنابنى الوزير فى شرح الأمر لدى هذه الجهات ، والرد على أسئلتها ، واستنجازها موافقتها .

وكتب الوزير رسميًّا إلى الإذاعة والمصنع بأنى مفوض عن الوزارة فى كافة شؤون المشروع ، وأن لهما الرجوع إلىّ فى أى شأن من هذه الشؤون .

ورأيت أن يمضى الشيخ محمود الحصرى فى تسجيل رواية حفص ، على التفصيل الذى سنذكره فى فصل القراءات .

---

(١) شكّلت هذه اللجنة من :

« لبيب السعيد » صاحب المشروع ، ويكون مقرّراً للجنة

المرحوم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى المستشار الفنى للوزارة وقتئذ .

المرحوم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة .

الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى أستاذ الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً

الأستاذ الشيخ محمد الغزالى مدير المساجد بوزارة الأوقاف (وقتئذ)

الأستاذ الشيخ سيد سابق مدير إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف (وقتئذ)

الأستاذ الشيخ عبد الفتاح القاضى رئيس لجنة مراجعة المصاحف .

الأستاذ الشيخ عامر عثمان المدرس بمعهد القراءات (قسم التخصص) .

الأستاذ الشيخ محمود خليل الحصرى وكيل المقارئ (وقتئذ)

المرحوم المهندس عز الدين فؤاد المدير العام بالإذاعة (وقتئذ)

المهندس طه نصر كبير مهندسى الإذاعة (وقتئذ أيضا)

وقد عدّل هذا التشكيل مرات بعد هذا .

(٢) وكان وقتئذ هو السيد الأستاذ حسن عباس زكى

٨

ولم يسترح فى ذلك الوقت بعض كبار القراء لفكرة التسجيل بالقراءة المرسلة غير التطريبية ، وربما كان ذلك لأسباب :

(أولها) الخوف من أن تعمّ هذه الطريقة التى لم يألفوها فى حياتهم العملية ، فيقلّ الإقبال عليهم .

(وثانيها) أنّ تسجيل القرآن ، من أوله إلى آخره ، وبكل الروايات المتواترة والمشهورة ، يقتضيهم دراسة جديدة شاقة وطويلة ، وهو مالا تسمح به ظروفهم كقراء مشاهير يصعب عليهم تدبير الوقت والطاقة لمثل هذه الدراسة ، ثم إنهم – على الأغلب – تعوّدوا الاقتصار فى قراءتهم بالمحافل على مواضع معينة عرفوا جيِّداً قراءاتها ، وأساليب التغنى بها ، وهم لذلك لا يشعرون بحاجة ماسَّةٍ إلى هذه الدراسة المجهدة التى يتولاها غالباً مدرّسون أقل منهم كثيراً مالاً وشهرةً .

(وسبب ثالث) هو أن القراءة المرسلة النموذجية المطلوبة تعتمد قبل كل شىء على دقة الأداء ، وعمق المعرفة النظرية والعملية بقواعد التجويد ، وطرق القراءات ، أما نصيب الصوت الحلو فى نجاحها فيقع فى المرتبة الثانية ، وهذا – فيما يحسب بعضهم – غير القراءة التنغيمية التى تجعل لحسن الصوت المحلّ الأول .

وقد أوضحت لمن استكْشَفْتُ فيه مثل هذا الخوف أن مشروع الجمع الصوتى للقرآن أو المصحف المرتل لا يحارب أبداً الطريقة التنغيمية فى القراءة ، إلا إذا خَرَجَتْ عن قواعد الأداء القرآنى السليم المأثور ، وأوضحت أن عملهم كقرّاء هو أسمى من أن يقف – ولو مدة يسيرة – عن التزوّد بالعلم المتخصص .

٩

وأحسست بجلالة المسؤولية الفنية تلقاء تسجيلات يراد أن تكون مصاحف مرتلة أئمة ، كما كانت المصاحف الأئمة التى كتبها الصحابة على عهد عثمان ، فطلَبْتُ إلى أعضاء لجنة

التسجيل[١] :

١ – اقتضاء كل قارئ غاية الدقة فى الأداء ، مع إلغاء كل تسجيل لا يصل الأداء فيه إلى حدّ الامتياز ، واعتبار هذا مبدأً لا يجوز أبداً التّرخص فيه .

٢ – الاستماع جميعاً إلى الحصة القرآنية المراد تسجيلها للتأكد – مقدّما – من دقّة أداء القارئ ومراعاته الأحكام ، وتزويده بما قد يلزمه من توجيهات ، وبصفة خاصّة لتحديد مواضع الوقف بحسب السّنّة ، وبحسب ما تقتضيه المعانى ، وما اتفق عليه علماء القرآن .

* * *

ومضى العمل فى تسجيلات رواية حفص عن عاصم ، بصوت الشيخ الحصرى الذى كنت اخترته لتسجيل هذه الرواية ، منذ ما قبل وضع المشروع تحت الرعاية المالية لوزارة الأوقاف ، حسبما أوضحت آنفاً .

ولم يكن التسجيل شيئاً هيّناً ، فمع امتياز القارئ ، وكونه قد أصبح آنئذ شيخ المقارئ كانت اللجنة تستوقفه كثيراً ليعيد التسجيل على النحو النموذجى المطلوب .

وبدأ الطبع فى مايو سنة ١٩٦٠ ، وأمكن الانتهاء من الطبعة الأولى فى ٢٣ يوليو ١٩٦١ : عيد الثورة التاسع ، حيث بدئ بتوزيع المصحف المرتل للمرة الأولى فى تاريخ الإسلام .

وأذيع المصحف المرتل من دار الإذاعة بالقاهرة للمرة الأولى فى الساعة السادسة من صباح الاثنين ٨ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ (١٨ من سبتمبر ١٩٦١ م) .

وتقرّر وقتئذ إذاعة المصحف المرتّل يوميًّا فى الساعة السّادسة صباحاً ، ثم بعد أذانى الظهر والعصر .

وقامت بعد ذلك للمصحف المرتّل محطة إذاعة قائمة برأسها تذيعه أغلب ساعات النهار والّليل .

وما لبثت بلاد إسلاميّة أخرى أن مضَتْ على الدرّب ، فأنشأت محطات إذاعيّة خاصّة بالقرآن الكريم .

---

(١) كانت مشكّلة وقتئذ من الأساتذة المشايخ :

عبد الفتاح القاضى (وقد استعفى من اللجنة فى وقت مبكر ، لأسباب منها بُعْدُ عمله وقتئذ عن القاهرة) ، عامر عثمان ، وعبد العظيم الخياط ، ومحمد سليمان صالح ، ومحمود حافظ برانق ، والأربعة الأخيرون كانوا من مدرسى معهد القراءات التابع للأزهر .

١٠

وفى سنة ١٩٦٢ م ، شرعنا فى تسجيل قراءة أبى عمرو ، برواية الدورى . وهذه القراءة هى الأكثر ذيوعاً الآن فى السودان ، ونيجيريا ، وأواسط أفريقية بصفة عامّة [١] ، وكانت هى الأكثر انتشاراً فى مصر ، حتى جاء الحكم التركى ، ففاقتها فى الانتشار رواية حفص .

وقد أشرتُ بأن لا يستأثر قارئ واحد بتسجيل المصحف كاملا ، دفعا لملل السّامعين ، واستفادةً بأكبر عددٍ من أصحاب المواهب ، وتحقيقاً لتكافؤ الفرص ، فاختير لتسجيل هذه الرواية ثلاثة من القراء [٢] . وبَذَلْتُ – مع زملائى – فى هذا التسجيل نفس الجهود الفنية الضخمة التى بذلناها فى سابقه .

* * *

بيد أنه أثناء هذا التسجيل ، بعثت مشيخة الأزهر [٣] إلى وزير الأوقاف والأزهر [٤] كتاباً تطلب فيه منع ما سوى رواية حفص من الروايات ، وما سوى صوت الشيخ الحصرى من الأصوات ، حتى لا يثير ذلك – حسبما قرر كتاب المشيخة – اختلاف المسلمين حول أىّ القراءات أولى ، وأىّ الأصوات أحلى [٥] .

وفزع صاحبُ المشروع من هذا المنع ، وقابل فى شأنه شيخ الأزهر ، وكان من أوجُه الاحتجاج فى تلك المقابلة الطويلة التى تحمّلها الشيخ ، وكان وقتئذ مريضاً ، رحمه الله :

١ – أن مرجع الاختلاف بين القراءات هو – على الأغلب – نزول القرآن على سبعة أحرف ، حسبما قرر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما روى البخارى [٦] ، ومسلم [٧] . وابن جرير ،

---

(١) رغب إلىّ عدد من العلماء فى هذه البلاد المبادرة إلى تسجيل رواية الدورى ، وأبدوا أن ذلك سيكون عوضا لسائر البلاد التى تقرأ بهذه الرواية عن أمنية سعوا لها عند مصر – قبل الثورة – فأخفق سعيهم . وقد بعث السودان بنسخة خطية من المصحف مضبوطة بالشكل وفق هذه الرواية ، للانتفاع بها أثناء التسجيل الصوتى . وقد رأيت تصويرها قبل إعادتها ، وتولّت هذا دار الكتب المصرية (الآن : دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة) لحساب وزارة الأوقاف

وقد استجبت فعلا – ومع زملائى أعضاء لجنة المصحف المرتل – لهذه الرغبة . وتولىّ التسجيل القراء المشايخ : فؤاد العروسى ، والمرحوم محمد صديق المنشاوى ، والمرحوم كامل يوسف البهتيمى .

(٢) هم المشايخ المذكورون آنفاً .

(٣) بتوقيع المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

(٤) وكان هو الأستاذ الدكتور محمد الهى . (٥) أو كما قال كتاب المشيخة .

(٦) كتاب ٤٤ باب ٤ ، وكتاب ٦٦ باب ٤ و ٢٧ ، وكتاب ٨٨ باب ٩ ، وكتاب ٩٧ باب ٥٣

(٧) كتاب ٦ حديث ٢٧٠ – ٢٧٤

وابن حبّان ، والبيهقى[١] ، وفيما روى أحمد[٢] ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى[٣] ، والطيالسى[٤] ، وغيرهم[٥] ، فالقراءات المتواترة والمشهورة وغير الشاذة هى – بيقين – مما نزل ، وتضمنته العرضة الأخيرة ، ووافق خط المصحف ، فكيف تمنع ؟

* * *

٢ – ثم إن النبى – عليه الصلاة والسلام – لم يوافق الصحابة الذين عارضوا بعض القراءات التى تخالف ما لُقّنوه[٦] :

(أ) سمع عمرُ بن الخطاب هشام بن حكيم يقرأ بسورة الفرقان على حروف ، يقرئ

---

(١) انظر : السيوطى : الدر المنثور جـ ٥ ص ٦٢

(٢) انظر : مسند أحمد بن حنبل ، بتحقيق أحمد شاكر جـ ١ ص ٢٤ و ٤٠ و ٤٢ و ٤٣ .

(٣) انظر : النابلسى : ذخائر المواريث جـ ٣ ص ٤٢ و ٤٣ .

(٤) انظر : مسند الطيالسى ، حديث ٣٩ و ٥٤٣ .

(٥) يقول السيوطى : ورد حديث « نزل القرآن على سبعة أحرف . . . » من رواية جمع من الصحابة : أبىّ بن كعب وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبى سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبى بكرة ، وأبى جهم ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى طلحة الأنصارى ، وأبى هريرة ، وأبى أيوب ، فهؤلاء أحد وعشرون صحابيا . وقد نص أبو عبيد على تواتره (الإتقان جـ ١ ص ٤٥)

وقال ابن الجزرى : « وقد تتبعت طرق هذا الحديث فى جزء مفرد جمعته فى ذلك ، فرويناه من حديث : عمر بن الخطاب ، وهشام بن حكيم بن حزام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبىّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عباس ، وأبى سعيد الخدرى ، وحذيفة بن اليمان ، وأبى بكرة ، وعمرو بن العاص ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك ، وسمرة بن جندب ، وعمرو بن أبى سلمة ، وأبى جهم ، وأبى طلحة الأنصارى ، وأم أيوب الأنصارية ، رضى الله عنهم » (النشر : جـ١ص ٢١)

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير : « أن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – قال يوماً ، وهو على المنبر : أذكر الله رجلاً سمع النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف » لما قام . فقاموا حتى لم يحصوا .

فشهدوا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » .

فقال عثمان – رضى الله عنه – : وأنا أشهد معهم

(نفس المرجع)

وانظر أيضاً فى هذا الموضوع :

البلوى : ألف باء ص ٢١٠ – ٢١٧

ابن تيمية : الفتاوى الكبرى جـ١ ص ٣١٢ وما بعدها .

ابن جرير الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن – المقدمة ص ٩ – ٢٥

القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٤١ – ٤٩

ابن قتيبة الدينورى : القرطين (جمع ابن مطرف) ص ١٥٠ – ١٥٤

(٦) أشرنا إلى هذا إجمالاً فى موضع آخر

النبي بها عمر ، فقاد هشاماً إلى النبي محتكماً ، فسمع النبيُّ الاثنين ، وقال عن قراءة كل منهما : هكذا أُنزلت ، ثم قال : إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسّر منه (١) .

(ب) أنكر أبيّ بن كعب على اثنين من المسلمين قراءتهما ، فدخل معهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فحسّن النبي شأنهما ، ولما غشيت أبيًّا خلجات شكٌّ ضَرَب النبيُّ في صدره ، ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذه الخلجات ، وقال له : يا أبيّ ، أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه : أَنْ هَوِّنْ على أُمّتي ، فردّ إليّ الثانية : اقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هوّن على أمتي ، فردّ إليّ الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل ردّة رددتها مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتي ، اللهم اغفر لأمتي ، وأخّرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلّهم ، حتى إبراهيم ، صلى الله عليه وسلم (٢) .

(ج) وسمع ابن مسعود رجلا يقرأ حروفاً ما يقرؤها ، فانطلقا إلى رسول الله ، فأخبراه ، فتغيّر وجهه ، وقال : إنما أهلك من قبلكم الاختلاف ، ثم أسرّ النبي إلى عليّ شيئاً ، فقال عليّ : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم (٣) .

(د) وسمع عمرو بن العاص رجلا قرأ آية من القرآن ، فقال عمرو : إنما هي كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فأيّ ذلك قرأتم أصبتم ، فلا تماروا (٤) .

* * *

٣ – أن الدين نهى عن المماراة في القراءات ، وأن الفقهاء ذهبوا إلى أن منكر قراءة هو منكر للقرآن ، ومن ثم فهو كافر (٥) .

---

(١) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري جـ ١٣ ص ٤٤٦ (ط . البهية) .
والكرماني : شرح صحيح البخاري جـ ٩ ص ٢١٦ .
ومسلم : الجامع الصحيح جـ ٢ ص ٢٠٢ .
ومسند الطيالسي ص ٩ .
وعلي القاري : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح جـ ٢ ص ٦١٩ و ٦٢٠ .

(٢) مسلم : الجامع الصحيح جـ ٢ ص ٢٠٣

(٣) رواه الحاكم ، وابن حبان ، وانظر : علي القاري : مرقاة المفاتيح جـ ٢ ص ٦٢١ – ٦٢٣ .

(٤) انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري جـ ٩ ص ٢١
وانظر : الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن جـ ١ ص ٩ – ٢٥

(٥) انظر في تكفير المماري في القراءات : الحداد خلف الحسيني : الكواكب الدرية ص ٤ .
والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ : المقدمة
وشرح الجمل على تفسير الجلالين : الخاتمة .

على أن اختلاف القراء كلّه حقٌّ وصوابٌ ، نزل من عند الله ، أو أذن فيه الله نبيّه ، ولا ينكره أحدٌ على أحد ، وليس كاختلاف الفقهاء . . اختلافاً اجتهاديًّا ، هو بالنسبة لصاحبه مجرّد صواب يحتمل الخطأ . ولا تعنى إضافة قراءة إلى قارئ ، أو رواية إلى راوٍ إلا أن ذلك المضاف إليه اختار هذه القراءة أو الرواية ، وكان أضبط لها ، وأدوم ، وألزم قراءة وإقراء بها ، حتى نُسبت إليه أو نُسب إليها ، فهى إضافة اختيار ، ودوام ، ولزوم ، لا إضافة اختراع ، ورأى ، واجتهاد[1] .

* * *

٤ – أن القراءات المتواترة والمشهورة وغير الشاذة كلّها صحيحة ، وكلها مقروء بها واقعيًّا منذ كان الوحى ، « وإلا كانوا – أى المسلمون – جميعاً عصاة مخطئين فى ترك ما تركوه منه . كيف وهم معصومون من ذلك ، ولم يدخل الشكّ أو التكذيب قلب أحد ؟[2] » . والأمة مخيّرة فى القراءات « كتخييرها – إذا هى حنثت فى يمين وهى موسرة – بأن تكفّر بأىّ الكفّارات شاءت : إما بعتق ، وإما بإطعام ، وإما بكسوة »[3] .

ولا شك أن إهمال ما عدا رواية حفص – كما أراد كتاب شيخ الأزهر – هو سبيل إلى تطرق الظنون إلى باقى الروايات والارتياب فيها .

ومصر التى تسود فيها الآن رواية حفص لم تكن ، فى وقت من الأوقات ، – كما حكى بعضهم – تعرف غير قراءة ورش ، بطريق أبى يعقوب الأزرق[4] .

والقراءة بالقراءات الثابتة الصحة – فضلا عن المتواترة وغير الشاذة – أمر اتبعه المسلمون منذ عهد بعيد . وقد كان سعيد بن جبير – وهو من التّابعين – « يؤمّ الناس فى شهر رمضان ، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله (يعنى ابن مسعود) ، وليلة بقراءة زيد بن ثابت »[5]

ومما يؤكد تداول القراءات بين المسلمين فى مختلف البلاد الإسلامية ما قاله مكّىُّ بن أبى

---

(١) انظر : ابن الجزرى : النشر حـ ١ ص ٥٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٣

(٣) أبو عمرو الدانى : جامع البيان فى القراءات السبع المشهورة الورقة ٣ مخطوطة ٣ م قراءات بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) فى ترجمة « الأزرق » المتوفى فى حدود الأربعين ومائتين ، وأحد تلاميذ ورش . يروى السيوطى عن أبى الفضل الخزاعى قوله : أدركت أهل مصر والمغرب على أبى يعقوب يريد الأزرق وورش ، لا يعرفون غيرهما (السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة حـ ١ ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ط ، سنة ١٢٩٩ هـ) .

(٥) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء حـ ١ ص ٣٠٥ و ٣٠٦

طالب من أن الناس بالبصرة – على رأس المائتين – كانوا على قراءة أبى عمرو ، ويعقوب ؛ وبالكوفة على قراءة حمزة ، وعاصم ؛ وبالشام على قراءة ابن عامر ؛ وبمكة على قراءة ابن كثير ، وبالمدينة على قراءة نافع . واستمرّوا على ذلك ، فلما كان على رأس الثلثمائة ، أثبت ابن مجاهد اسم الكسائى ، وحَذَف يعقوب »[1] .

وفى مصر بالذات ، يرفع المسلمون من شأن علماء هذه القراءات وقرائها . وقد أقيم للقراءات – علاوة على دُور الإقراء المنتشرة فى الريف والمدن والتى يديرها غالباً مقرئون حاذقون – معاهد خاصة ملحقة بالأزهر .

* * *

٥ – أن مصر ، بما هى زعيمة البلاد الإسلامية ، ومقرّ أكبر عدد من علماء القرآن منذ قرون ، وفيها أكبر عدد من دور الإقراء ، تملك ، إذا هى تولت الجمع الصوتى للقرآن ، بمختلف رواياته المتواترة والمشهورة وغير الشاذة ، أن تبذل له من الإمكانات مالا تستطيعه الآن أية دولة ، فإن انصرفت هى عن هذا الواجب ، فإما أن تنصرف عنه أيضاً الدول الإسلامية الأخرى ، وإما أن تتولاه بعضَه أو كلَّه على نحو تعوزه غالباً الإمكانات العلمية ، والمسلمون – فى الحالين – هم الخاسرون .

ولماذا تدع جمهوريتنا مشروعا يُكسب الوطنَ بل الزمنَ أعظم مجد ؟

* * *

٦ – وإذا كان المجتمع العربى مهتمًّا الآن بحفظ تراثه : غاليه ورخيصه ، فمِنْ واجبه – لا ريب – ألا يتقاعس أبداً عن جمع روايات القرآن التى أخذها المجتمع بالتواتر عن الرسول نفسه ، عن طريق صحابته الذين ثبت تلقّيهم القرآن عنه حرفاً حرفاً .

وإذا كنا نجود بالمال والجهد أسخياء على تسجيل اللهجات الغابرة ، بل الأغانى الداثرة ، بل الرقصات الدابرة ، أفلا يجب علينا أن نجود بمثل هذا لروايات القرآن المتواترة والمشهورة وغير الشاذة ، والقرآن هو ما هو فى تاريخ البشرية على مدى الدهور ؟

ثم أليست هذه الروايات المنزلة من عند الله أَوْلى بالحفظ من كل ضروب « الفولكلور » ؟ أليست أجدى نفعاً ، وأشرف غاية ، وأقدس حقًّا ؟

* * *

وأيد الشيخ – رحمه الله – كل أقوالى ، وكان – فى تأييده – يسبق أحياناً إلى إتمام بعض

---

(١) انظر : ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ٢٦ (ط . البهية) .

عباراتى ، وبادر فكتب – رسميًّا – لوزير الأوقاف بأن القراءات التى لا يوافق على تسجيلها هى فقط : القراءات الشاذة وغير المتواترة ، وأنه يودّ أن يظل التسجيل سائراً على قاعدة عدم خلط القراءات بعضها ببعض ، وأن تكون دقة الأداء ومراعاة الأحكام مقدَّمَتين على حُسْن الصوت ، ورجا أن توجه كل قراءة إلى البلاد التى تختارها ، وبناء على طلب المسلمين فيها .

وأشار فى كتابه – رحمه الله – إلى أمر كنت أجهله وهو أن بعض زعماء المسلمين فى البلاد التى تتداول فيها روايات غير رواية حفص شكوا إليه من ذلك المنع .

١١

ومع أن تعدّد القراءات أمر اشتهر بين المسلمين ، فآمنوا به ، ولم يختلفوا فيه ، على نحو ما رأينا قبلُ ، وما سوف نرى ، فى دراسات تالية تشغل صفحات كثيرة من هذا البحث إن شاء الله ؛

ومع أن الفروق بين القراءات يسيرة ، ومحصورة ، كلّها ، ومضبوطة ، ومعلومة ، ومتلقاة كلّها عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا زيادة فيها ولا نقص ولا تناقض ، ضرورةَ أنّ كلاًّ منها حقّ ، والحقّ لا يناقض بعضه بعضا ، ولا تجهد عامة الناس فى الفهم والتدبّر ، فضلاً عن أن تجهد الدارس المدقق أو القارئ المتخصص ؛

مع هذا ، يبدو أن بعض المسلمين ما يفتأون يظنون أن وراء الجمع الصوتى للقراءات المتواترة والمشهورة وغير الشاذة محذوراً يُخاف أو خطراً يُخشى .

ومن الأمثلة : أن أحد المسلمين[١] كتب إلى محافظ القاهرة يقول : « إنه حَسَنٌ جداً أن يسجَّل المصحف المرتل بجميع القراءات ، إذا كان سيذاع على سكان البلاد الإسلامية التى تتحدث العربية ، وتفهمها بسهولة ، لأنّ هذا سيمكنهم من لغة القرآن ، ويعرّفهم بلهجاتها المختلفة (كذا) ، أما سكان البلاد الأخرى التى كاد الاستعمار يقضى على تراثهم الدينى واللغوى ، فإنه يخاف عليهم أن تتشتت أفكارهم إذا سمعوا إلى عدة قراءات » ، ولذلك يرى أنه « يكفيهم تسجيل وطبع القرآن الكريم بقراءة واحدة من القراءات التى تناسبهم ، وتقارب لهجاتهم القومية (كذا) ، لتتركز عقولهم وجهودهم فى تلاوتها وتفهمها » .

وحوّل المحافظ الكتاب إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى التى أحالته إلى وزارة الأوقاف ، وهذه أحالته إلى صاحب المشروع .

---

(١) واسمه : محمود أحمد خليفة – بالمعاش

وقد جاء ضمن إجابتى الرسمية على هذا الكتاب [١] ما أُورد بعض نصوصه هنا ، لأنه فى صميم موضوع هذا الباب .

« والقراءات التى دعا مشروعى إلى تسجيلها هى القراءات العشر بروياتها التى تواترت – كما يقول ابن الجزرى – « فى أصلها ، وأجزائها ، وفى وضعها وترتيبها ، إلى يومنا هذا ، فى الأعصار والأمصار ، بالأسانيد الصحيحة ، عن أئمة القراءة والحديث والفقه المشهورين بالثقة والأمانة وحسن الدين وكمال العلم ، والمتصلة أسانيدهم العادلة الضابطة بالنبى – صلى الله عليه وسلم – ، وهو تواتر مقطوع به ، وشامل للأصول والفَرْش [٢] كما قرر المحققون جميعاً .

وهذه القراءات – على خلاف القراءات الشاذة – ليس فيها زيادة كلمة أو نقصانها ، وتقديمها أو تأخيرها ، وليس فيها إعمال رأى ، أو اجتهاد ، فى إثبات شىء لم يثبت أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قرأ به » .

وواضح من هذا ، ومن اشتهاره عند أئمة هذا الشأن ، أنه لا وجه أبداً للمنع من التسجيل بهذه الروايات ، لأنه يُفهم من المنع الإنكار ، وهو مالا يحلّ .

* * *

ويرمى مشروع الجمع الصوتى للقرآن الكريم بروياته المتواترة وغير الشاذة إلى الآتى :

(ا) تحقيق المقاصد التى من أجلها وُضِعت الموازين للقراءات منذ قديم ، وهى مواجهة الملابسات التى أحدثها تفرّق القراء الذين تلقّوا عن صحابة متعددين فى البلاد ، وقلة الضبط ، والتخليط ، واشتباه المتواتر بالفاذّ ، والمشهور بالشاذّ .

(ب) التعريف بما يقرأ به كل من أئمة القراءة ، والتمييز بين ما يُقرأ به ومالا يُقرأ ، وكفالة العصمة للمسلمين من الخطأ فى النطق بالكلمات القرآنية وصيانتها عن التحريف والتغيير .

---

(١) وهى مؤرخة فى ٥ من أغسطس سنة ١٩٦٤

(٢) المقصود (بالأصول) فى مصطلح علماء القراءات : الكلّيات التى تضمّ الجزئيات المتماثلة ، كقواعد المدّ والقصر ، والتحقيق والتسهيل ، والإمالة والفتح . . . إلخ .

أما (الفَرْش) ، فهو ، فى مصطلحهم : الجزئيات التى يختلف القراء فيها ، والتى لا يقاس عليها ، كقراءة « مَلِكِ يَوْمِ الدِّين » (سورة الفاتحة / ٤) ، فإنه لا يقاس عليها « مَلِكِ النّاس » (سورة الناس / ٢) : فالأولى يقرؤها عاصم والكسائىّ : « مِلِكِ » بألف ، ويقرؤها الباقون بغير ألف ، أما الثانية فيقرؤونها جميعاً بغير ألف .

وانظر : ابن جزى الكلبى : التسهيل لعلوم التنزيل حـ ١ ص ١٢ ، ففيه تفصيل شارح .

(حـ) ضمان وجود الحفّاظ لكل رواية فى كل بلد إسلامى بالعدد الذى يصحّ معه اعتبار الرواية متواترة .

ولا شك أن الاقتصار على تسجيل رواية واحدة يعطّل تلك المقاصد . »

١٢

ووفق الله تعالى ، فنجحتُ فى الاتفاق على طبعة جديدة ، بشروط جديدة أقرها مجلس الدولة ووزارة الخزانة ، ووقّع عقدها وزير الأوقاف [١] ، ورئيس مجلس إدارة المؤسّسة المشرفة على المصنع المتعاقد معه [٢] .

ومن هذه الشروط : أن تكون الماتريسات (أمهات الطباعة) مِلْكاً خالصاً لوزارة الأوقاف تستعملها وقتما تشاء فى أىّ مصنع تشاء . ومنها : إعادة ملء الأسطوانات إلى الحدّ الذى يناسب مساحتها ، وذلك تحت الإشراف الفنى لوزارة الأوقاف ، لتضمن مناسبة المواضع القرآنية التى تنتهى عندها التلاوة فى كل أسطوانة ، على أن يتحمل المصنع كلّ نفقات هذه الإعادة (أى المونتاج) . وسيؤدى هذا إلى إنقاص عدد أسطوانات المصحف المرتل من ٤٤ أسطوانة إلى ٢٨ أسطوانة .

ونتيجة لهذا كلّه ، ولأن كل مستلزمات المشروع ، حسبما قدمنا ، معفاة فعلا بقرار جمهورى – من كل الرسوم الجمركية ، فإن الوزارة لن تدفع – فيما لو نفّذت هذا العقد – غير ثمن الخامات ، وأجر الكبس فى المصنع . وسينزل هذا – يقينا – بسعر المصحف المرتل ، فى الطبعات التالية ، إلى نحو جنيهين على أكثر تقدير ، بدلا من حوالى ٢٢ جنيهاً [٣] .

* * *

وأعيد طبع رواية حفص غير مرة .

والمأمول ، إن مدّ الله لى العمر أن أمضى – بمشيئته وبتوفيقه وبعونه – فى إتمام الجمع الصّوتى الأول للقرآن ، بتسجيل سائر رواياته وطرقه وأوجهه ، على النحو الذى سأذكره تفصيلا فى فصل آخر إن شاء الله .

والله أسأل أن يجعله عملا صالحاً متقبّلًا .

---

(١) الأستاذ الدكتور محمد الببى . (٢) المهندس صلاح عامر .

(٣) سأل سائل : وكيف نفّذ هذا العقد ؟ ، فأستأذن فى ألاّ أردّ .